الفصل الرابع

العودة للوطن

١- مفاجأة مذهلة

٢- الزلفي

٣- الأرطاوية - منبع الأخوان

٤- الطريق الصحراوي

٥- الكويت

الفصل الرابع

العودة للوطن

١ـ مفاجأة مذهلة

بزغ فجر الثاني من أكتوبر يوماً جميلاً صافياً من الغيوم كما قد يتمناه المرء، بنسيم عليل بارد من الشمال يهز نخيل بريدة تحت سماء مشرقة. ومع ذلك كان بالنسبة لي يوماً من الغيظ والمرارة، فلم يكن ابن سعود قد وصل بعد من الطرفية، ولم يكن هناك شيء من أحوالي يوحي بأن إقامتي المؤقتة في الجزيرة العربية تقترب من النهاية.

جاء عباس الفلجي زائراً في الصباح بغرض ترتيب زيارته المرتقبة لبغداد، حيث سيكون بحاجة إلى خطابات تزكية. وقد تفاديت طلبه على أمل أن أتمتع أكثر بصحبته في الأيام القادمة. فسوف أزور بيته وربما أتمكن من الدخول في بيت أصدقائه، لقد كان هو نفسه شديد التذلل والخنوع لدرجة منفرة، ولكني أردت أن أذيب الثلج الذي يغطي المياه الراكدة في مجتمع بريدة، الذي يخفي الحلاوة والعذوبة التي يدركها المرء بصورة كافية تماماً في المواكب المتصلة التي تنتشر منه إلى أطراف الدنيا بغداد، ودمشق، والقاهرة. وقد أخذته على حين غرّة باتهامي الصريح لمجتمع بريدة بأنه لم يعاملني بأهمية أو اعتبار أو لطف كما ينبغي لممثل قوة عظمى التي على كرمها وحمايتها يعتمد الكثير من مواطنيه في رخائهم وازدهارهم[1]. فأجاب: "يا سعادة الصاحب !! إن سعادتكم يعلم أننا كلنا لسنا متساوين وأقلهم أنا". لقد كنت مستعداً

(١) أعتقد أن هذا ادعاء باطل من فيلبي فلم يعرف عن بلدة (بريطانيا) إلاّ التسلط والاحتلال لبلدان الأرض، وابتزاز ثرواتها وإهانة سكانها (ابن جريس).

لخوض تجربة جديدة، ولكن انقطع حبل حديثنا بوصول حقيبة البريد من الكويت. ولم نتقابل مرة أخرى أبداً ولا أدري إن كان قد ذهب إلى العراق على الإطلاق أم لا.

وفي محتويات حقيبة البريد أشد الخطابات فزعاً وإحباطاً أتلقاها منذ أن بدأت مهمتي، ففي الحقيقة كانت الأوامر التي تلقيتها، ما لم تُعدّل بصورة أساسية أو تلغ تماماً تساوي إنهاء تلك المهمة. لقد صعقت واغتظت غيظاً شديداً وأنا ضعيف أمام حماقة حكومتي. فقد قررت حكومة جلالته أنهم لم يعودوا بحاجة إلى أن يمضي ابن سعود قُدماً في حملته العسكرية ضد حائل خشية أن يكدر نجاحه مزاج الملك حسين. والحجة كانت على ما يبدو أن تعكير مزاجه قد يعرّض تقدم حملة لورانس العسكرية في سوريا للخطر، ولكننا الآن نعلم أن هذه الحجة يصعب تأييدها أو الدفاع عنها؛ لأن لورانس وفيصل قد تشاجرا مع الطاغية العجوز عبر أسلاك البرق من أبي اللسان، وأنهما قد انضما إلى جيش اللنبي، ومهما يكن من أمر، فقد توصلت حكومة جلالته إلى هذا القرار، وتبعاً لذلك قررت أيضاً سحب هدية من ألف بندقية وما يقابلها من الذخيرة التي سُلمت من قبل فعلاً لعبدالله النفيسي وكيل ابن سعود في الكويت، بدلاً من الهدية السابقة من البنادق عديمة القيمة من طراز ونشستر التي ألقى عليها العاهل الوهابي نظرة كئيبة وصريحة بما يُخزي المتبرعين. ولا يمكن أن يكون هناك عذر لمثل هذا الإجراء من سحب هدية منحت سلفاً. وأخيراً قيل: إن المندوب السامي في القاهرة يعارض بشدة اقتراحاً، يروق للحكومة للبريطانية، بإرسال لجنة بريطانية لبحث وتسوية مسألة حدود الخرمة. في ضوء التطورات اللاحقة خلال عقد مليء بالأحداث، فقد كان من مصلحة ابن سعود أن مستشاري الحكومة البريطانية يقودهم الجهل والتحيّز[1].

(١) لمزيد من الإيضاح عن سير الأحداث السياسية في الجزيرة العربية أثناء هذه الرحلة لفيلبي (١٣٣٦هـ/١٩١٨م)، وما هي مواقف الحكومة البريطانية من القوى السياسية، في الجزيرة العربية، وبخاصة من الأشراف في الحجاز، وابن سعود في نجد، وابن الرشيد في حائل، انظر: لوريمر، ص ٥٢٥ وما بعدها، إيفبيسون، ص ٦٩ وما بعدها. (ابن جريس).

وبحلول الوقت الذي رأيت فيه ابن سعود بعد عودته في وقت لاحق من اليوم كان قد تلقى وقرأ تقرير وكيله في الكويت عن حجز البنادق ومصادرتها، ولم يكن في أفضل حالاته المزاجية لأقدم له كأس المرارة الذي أمرت أن أكرهه عليه. واشتكى بمرارة من كل قلبه من حكومة صاحب الجلالة.

فقال: "من بعد هذا سوف يضع ثقته فيكم؟ إنني لم أرد أن أهاجم حائل وأنتم ألححتم عليّ لفعل ذلك. والآن تقول لي توقف. وتجعلني موضع سخرية من قومي أنفسهم بتزويدي بأسلحة عديمة القيمة، في حين الآن تضيف جرحاً إلى الإهانة بسحب البنادق الصالحة للخدمة التي قدمتموها بديلاً عن سابقتها". وهكذا عدنا إلى كل الحجج القديمة في المناقشات السابقة مرة أخرى بلا مواربة من ابن سعود لاستيائه وشعوره بالخزي والعار، بينما لم يكن عندي ساق أقف عليها ولا شيء أرد به.

إن كفاحي الطويل لرسم صورة حقيقية وعادلة لجزيرة العرب الوهابية قد باء بالفشل، ولكن لم يكن في ذهني أدنى شك في أن حكومة صاحب الجلالة، وهي تضع خططها خلف ستارة دخانية معتمة من سوء الفهم، قد دخلت في مسار من الزلل والخطأ سوف يؤدي بها إلى تبعات لم تحلم بها. وهناك أمل واحد فقط في تفادي هذه التبعات، ولكن هذا الأمل يكمن في استخدام القوات البريطانية بالجزيرة العربية وهذا مسار لم يرق، إلا بعد انقضاء مدة قصيرة من (١٩١٩م)[1]، لأولئك الذين كانوا في كرسي السلطة. في الوقت الحالي كان خطي واضحاً. فلا يمكن أن أقبل السياسة التي أمرت أن أنقلها إلى ابن سعود بصفتها نهائية أو مرضية. وعرضت أن أذهب في الحال إلى بغداد لأرى ما يمكن عمله ووافق مضيفي على اقتراحي. وأردف قائلاً: "وإذا رفضت حكومتكم تعديل سياستها، فما من فائدة من عودتك. إنني سوف أريهم ماذا يمكن أن أفعل. والله!! إنه الشريف المسؤول عن هذه

(١) (١٩١٩م) يقابل هذا العام بالهجري عام (١٣٣٨م). (ابن جريس).

الضربة الموجهة لي. لقد خدع تماماً حكام مصر، ولسوف أهاجمه إذا أصرت حكومتك على مسايرته في التعامل معي بسوء"[١].

وهكذا خرجت من حضرته بقرار مغادرتي يوم الرابع من أكتوبر. وفي اليوم التالي تأجل لقائي مع ابن سعود حتى وقت متأخر من المساء. تم اللقاء فوق سقف جناحه الخاص في القصر. وقد تجنب كل مناقشة للموضوعات التي كانت تشغل بالنا بالأمس. وبعد بعض الحديث العام أرسل لاستدعاء رشيد ومترك، اللذين سيكونان مسؤولين عن السفر للكويت. ولم أهتم كثيراً بالتعليمات المفصلة التي زودهما بها للعمل كأدلاء؛ لأنني كنت أدرك أن ذلك سوف يخضع للعراقيل التي قد يسببها رفاقي، وبالتالي فإن أمر السير سيكون خاضعاً لرأيي. وتركت ابن سعود لأكمل حزم أمتعتي وفي الصباح التالي أوقظت عند الفجر.

لم يكن عندي أي رغبة غير الرحيل، وكنت على أهبة الاستعداد قبل السادسة صباحاً. وبعد ذلك بساعتين كنت ما أزال أنتظر بفارغ الصبر تجميع الإبل وتحميلها، وفي هذه المرحلة استدعيت لمقابلة الوداع. هذا اللقاء لم يحدث في القاعة الكبرى الجديدة، حيث يستقبل ابن سعود الضيوف عادة، ولكن في غرفة تعرف باسم "المجلس القديم" وهو شقة ذات تهوية جيدة مفتوحة للنسائم العليلة الآتية من الجهة الشمالية حيث توجد شرفة فيها أعمدة. كنا بمفردنا، وأرسل ابن سعود، بكياسة تميز بها كثيراً بما فيها من السحر والجاذبية[٢]، في طلب الفطور، الذي تناولناه معاً، وجبة

(١) يسعى الملك عبدالعزيز أثناء توجيه كلامه إلى فيلبي، أن يقوم الأخير بنقل ما سمع إلى حكومته بريطانيا. وهذا القول من الملك عبدالعزيز يدل على عزمه وإصراره في مهاجمة أعدائه كالشريف في الحجاز وغيره بأجزاء الجزيرة العربية. كما أن وضوح مبادئه وأهدافه، ثم عمق إيمانه بالله جعله يقول رأيه بوضوح وصراحة حتى ولو كان مع بعض القوى الكبرى في ذلك الوقت. (ابن جريس).

(٢) امتاز الملك عبدالعزيز بالكثير من الصفات الأخلاقية الحميدة، إلى جانب الذكاء وقدرته على التعامل مع الأمور حسب ظروفها وملابساتها. وهذا فيلبي يشهد له ببعض صفات الحنكة والحكمة ليس في كتابه هذا، ولكن في عموم كتبه ودراساته عن الجزيرة العربية. (ابن جريس).

مقتصدة من الأرز المطبوخ بالزبد مع التمر. ثم ناقشنا أمور الدولة بجد حقيقي؛ لأن بيانات ابن سعود الأخيرة قد فهمت عن عمد على أنها إنذار. إن مستقبله كله كان على خطر، وكان بحق يرغب في اتباع طريق الصداقة مع بريطانيا العظمى.

وقال ابن سعود: «أكد لهم، نيابة عني، أن حكومة صاحب الجلالة يجب أن تتبنى واحداً من خطين في السياسة، لأنه لا يوجد بديل عنهما سوف يرضيني. دعهم، إن أرادوا، أن يتركوني وشأني مع ضمان امتناع جميع الدول المتحالفة معهم عن انتهاك حقوقي أو بلادي، لا أرغب في أكثر من أن أعيش بسلام في بلادي، وإذا تركت بسلام أتعهد من جانبي أن أظل هادئاً. أو دعهم يحافظون على التحالف النشيط الحالي بيننا ضد أعدائهم وأعدائي وأتعهد بأن أعطيهم الرضا مقابل الأسلحة والمال. ولكن بالنسبة لابن رشيد، لا أستطيع أن ألزم نفسي بالتراخي في هذا الاتجاه إلا إذا كانت حكومتك مستعدة لأن تضمن عدم هجومه هو أو رجال قبيلته، لكن تذكر، أن الضمان لا ينبغي أن يكون من النوع الذي أعرفه تمام المعرفة من تجربتي مع اعتداءات الشريف والعجمان[1]. بالنسبة للأول فقد أعطيت ضماني من زمن طويل لأهل الخرمة أنهم لن يهاجموا مرة أخرى، وقد هاجمهم الشريف؛ لذلك الآن سوف أنفذ وعدي بالمساندة ما لم تكن الحكومة البريطانية مستعدة لقبول واحد أو آخر من البديلين اللذين شرحتهما لك[2]. الاختيار من رأيي، تذكر، أنني قلق من رعاياي، لأنني حتى الآن قد وقفت وحدي ضد ميولهم الطبيعية،

(١) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات بين ابن سعود والشريف في الحجاز وقبائل العجمان في الخليج العربي. انظر: السعدون، ص١٧٠-١٧٨، أمين الريحاني. نجد وملحقاتها (بيروت، ١٩٦٤م) ص ٢٢٥، سعود بن هذلول، ص ١٠٥، عبدالعزيز الرشيد، تاريخ الكويت، ص ٢١٤، خزعل، ج٢، ص ٢١٧، حافظ وهبة، جزيرة العرب، ٢٣٩ العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ١٨١ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) سياسة ابن سعود كانت واضحة في إبلاغ رسالته إلى البريطانيين مع ممثلهم فيلبي، عندما عزم، هذا الأخير على العودة من القصيم إلى بغداد ليطلع على خطط وسياسات الحكومة البريطانية تجاه ابن سعود وغيره من القوى الأخرى في الجزيرة العربية. (ابن جريس).

وأقنعتهم أن الصداقة البريطانية لمصلحتهم المطلقة. لكن ماذا أستطيع أن أقول لهم الآن؟ من سوف يثق فيكم مرة أخرى بعد هذا؟".

ثم، لتخفيف الضغط عن مشاعره المكبوتة، تحول للحديث ببراعة عني حيث عبّر عن أسفه لرحيلي بكلمات ودودة مؤثرة ورغبة صادقة في عودتي إليه مرة أخرى بعد أن أعيد الأمور إلى نصابها مع الحكومة البريطانية. وأردف قائلاً: "لكن إذا لم تستطع أن ترتب هذه الأمور لا ترجع، لأنني لن أستطيع بعد ذلك أن أصمد أمام مشاعر وتقديرات شعبي، ولن أقبل مندوباً آخر"[١].

أجبته بأنني سوف أبذل قصارى جهدي واستأذنت منه بقلب يجيش بالإحباط الثقيل من الكارثة التي حطمت عمل سنة كاملة في لحظة كانت عندها كل العوائق للنجاح تبدو مذللة. لقد كان من المحتمل، في أقصى حدود علمي، أن يكون هذا الوداع نهائياً، ذلك عندما ودعته وخرجت من حضرته المهيبة الودودة إلى الإبل التي تنتظر في الخارج لتحملني في رحلة ربما تكون الأخيرة لي في جزيرة العرب، عندما كانت الأمور تسير على خير وجه كنت نادراً ما أدرك التعب والقلق الذي صاحب مهمتي في أرض المتعصبين الذين، بالبغض الشديد الخفي وأحياناً بالتصريح غير الموارب بكرههم للكافر بين ظهرانيهم، قد جعلوا حياتي وحيدة وكئيبة، ولم يخفف من وطأتها ويجعلها محتملة إلا الصداقة الثابتة مع ابن سعود[٢]. ثم الشعور بالنجاح

---

(١) يتضح من هذا القول لفيلبي، أثناء عودته إلى ممثلي حكومته في العراق بعض الأمور منها:

١- رغبة الملك عبدالعزيز في عودة فيلبي إلى الجزيرة العربية، وصرح له بذلك. وهذا مما جعل فيلبي يعود ويبقى في جزيرة العرب حوالي أربعين سنة زيّنها بكتاباته ودراساته المختلفة.

٢- أوصل الملك عبدالعزيز الرسالة بوضوح إلى فيلبي، الذي أكد عليه توضيح الصورة لحكومته حتى تسانده، وإذا لم يستطع إقناعها فأخبره بعدم العودة إليه، لأن رجوعه دون نتائج إيجابية لا قيمة له عنده. (ابن جريس).

(٢) اعترافات من فيلبي أنه كان يواجه مشكلات عديدة مع سكان الجزيرة العربية، لأنهم كانوا ينظرون إليه أنه على ملة الكفر، ولكن ابن سعود عرف قيمة هذا الرجل العلمية والسياسية فاستقبله وسانده، وهذا مما جعله يفضل البقاء في الجزيرة العربية لمدة طويلة. (ابن جريس).

الذي انطوت عليه، وبالإثارة التي نشأت من الفرص التي مكنتني من الترحال بطول وعرض بلاد الوهابيين، من الشرق للغرب ومن الجنوب للشمال. بيد أنني كنت الآن أشعر بالتعب، وسررت عندما أدركت أن وجهتي الآن نحو الوطن. في ساحة الجردة المفتوحة لم أجد سوى ثلاثة من الجماعة المرافقين لي مستعدين للانطلاق، ولأنني لست في وضع يطيق التأخير، فقد ركبت وانطلقت معهم، تاركاً الباقين ليتبعونا إذا أرادوا. ولم ينضم إلينا الجزء الرئيس من القافلة إلا بعد أن توقفنا للراحة في أول ليلة، وبحلول هذا الوقت كان روتين الترحال والعمل الجغرافي قد خفف من حدة الألم بداخلي بنسيان الهموم الأخرى.

٢ـ الزلفي[1]

كان رفاقي الثلاثة في هذه المرحلة الأولى من سيرنا الطويل هم مروج وهو عبدٌ من أهل البيت الملكي ومن حائل أصلاً، والذي استمر الآن في خدمتي نحو ثلاثة أشهر، وخزيم، وهو شمري من فخذ أسلم، والذي من واجبه أن يكفلنا في حالة وقوع اشتباك مع الجماعات المغيرة من قبيلته، ورشيد من قبيلة الرشيدي، وهي قبيلة ترتبط بعلاقات مصاهرة مع مطير تحت الشيخ أضعان ويؤدي وظيفتين مزدوجتين بصفة دليل ورفيق. وهذان الرجلان لم يكونا معروفين لي من قبل.

تركنا بريدة من البوابة الشرقية، ومشينا في اتجاه شرقي نحو برج حراسة الرفيعة، وبعدما سرنا في الأرض التي ذكرناها آنفاً خلال رحلتي قبل أيام قليلة من الطرفية، مشينا وسط بستان نخيل خب القبر حتى وصلنا إلى السهل الطيني بعده. والآن بعد سير لمدة ساعة جئنا إلى أول جبل في النفود الحقيقية، التي تمتد بموجات من الرمل الناعم بيننا وبين وادي الرمة. من المرتفع الثاني رأينا قصر

(١) لمزيد من التفصيلات عن بلدة الزلفي تاريخياً وحضارياً، انظر: عبدالرزاق السعودي، الزلفي (مطبوعات رعاية الشباب بالرياض)، ص ١٣ وما بعدها. (ابن جريس).

ومزارع الطعمية في الوادي نفسه تحتنا نحو الجنوب نسبياً من الشرق، بينما على مسافة بعيدة أمامنا وراء بحر عظيم من الرمل ظهرت الخطوط الداكنة لمرتفعي مستوِي وخرطم الصخريين، والأخير كان إلى اليمين نسبياً من اتجاهنا، بينما الأول يبين موقع هدفنا الأول، واحة الشماسية.

من آخر جبل مألوف نزلنا على منحدر بسيط في التربة الصلبة بقاع الوادي، حيث كان الدرب واضحاً تماماً أثناء مروره بين رواب متناثرة قاصية من رمل النفود. وعلى بُعد ثلاثة أميال تقريباً نحو الجنوب جنوب شرق توجد أكواخ قليلة وبستان نخيل ضليّم أسفل مرعى جبل خرطم، حيث يتاخم الأخير الوادي. ثم عند المرور على مسافة ميل تقريباً من قصور الطعمية دخلنا في منطقة من التلال الرملية المكسية بالرمث والتي سرنا خلالها بصورة ملتوية عبر الوادي الذي من ضفته اليمنى كانت بقع من الرمل المغطى بالحصى الأسود تتداخل في خط سيرنا. ويبلغ عرض القناة نحو ثلاثة أرباع الميل وفي أماكن أخرى يتراوح بين مئات قليلة من الياردات وميلين. وأكبر عرض لها كان في حوض سهل الدهورة الطيني الكبير، الذي يظهر أنه نقطة التقاء لما لا يقل عن قناتين مختلفتين. وأصبح سطح هذا الحوض أكثر وعورة بسبب قشرة خفيفة من ذرات الملح كلما تقدم سيرنا نحو الشرق إلى نفود صعفج التي وصلناها من وادي الرمة. هذا الحزام من رمل النفود يشكل الضفة اليمنى من الوادي بين ضليم عند الطرف الشمالي من جبل خرطم والنبقية عند الطرف الشمالي من جبل مستوِي. ويمتد إلى الجنوب دون انقطاع ـ كما قالوا ـ بين منطقتي الصفراء هاتين حتى مروى الشريمية على بُعد حوالي ثلاثين ميلاً جنوب الشماسية، حيث إن رمال نفود الثويرات الواقعة شرق جبل مستوِي، تلتقي به لتشكل الحزام الرملي المعروف باسم نفود شقراء أو بتراء. وتتكون منطقة وادي الرمة هذه من صخر رملي متحلل أو في طور التحلل. ولمسافة ميلين مشينا على تل متموج مغطى بكل ما في الكلمة من معان بشجيرات الغضا وبقع من الرمث المالح والأرطي المتشابكة، حتى دخلنا منطقة نفود أكثر ارتفاعاً وتجرداً، تمتد شمالاً وجنوباً ولكنها مضلعة بجبال

متعارضة من الرمل الذي كان محوره شرق وغرب ، ومكشوفة لرياح الشمال. في هذا الجزء لا توجد النباتات إلا في بقع ضئيلة في التجاويف أو المنخفضات. ومن قمة هذه النفود أو بالأحرى من ورائها نسبياً، ظهرت أولى بساتين نخيل الشماسية للعيان، ومن خلفها الحاجز الأسود لجبل مستوِي، الذي يبدو أنه الآن يتكون من جرف متدرج مع رف مسطح عرضه نحو ربع ميل، يربط قمة القطاع الأول مع سفح القطاع الثاني منه. والواحة نفسها تقع في قناة بين رمال النفود والقطاع الأول.

بعد الساعة الثانية ظهراً بقليل، وبعد أن قطعنا نحو خمسة عشر ميلاً، خيمنا في القسم المتوسط من الواحة. ودُعينا على القهوة في مجلس رجل من المحررين يقيم في القرية، وكان مجلساً قذراً بسيطاً من الجدران الطينية المسودة بالدخان ودون زخرفة. لقد كان مضيفنا وأصدقاؤه القليلون الذين جاؤوا ليسلموا علينا في منتهى الود وذوي نزعات خيرة بصورة فذة. إن أهل القرية، كما قالوا لنا، معظمهم من العبيد المحررين، ويعملون مستأجرين لدى أصحاب الأراضي من بني تميم الذين جاؤوا أصلاً من الوشم[1]، والأمير المحلي واحدٌ يدعى ابن فوزان. وربما يكون عدد السكان حوالي خمس مئة نسمة متناثرين في مساحة كبيرة في عدد من القرى تغطي نحو ميل. عند الطرفين الشمالي والجنوبي من المنطقة المأهولة تقع قرى صغيرة تشبه إلى حد كبير القصور المتامية، ذات أسوار وأبراج، بينما القرية الوسطى دون سور ومن الأكواخ الطينية البسيطة. بدت بساتين النخيل أقل ازدهاراً من تلك التي في روضة الربيعية وربما غرست بعدها وإنتاج البساتين الرئيسة من نوع التمر مكتومي[1]، الذي اشترينا منه تلاً بدولار واحد. والقسم الجنوبي كان

(١) للاطلاع على تفصيلات أكثر عن قبيلة بني تميم ومواطنهم في نجد وفروعهم، انظر: حمد الحقيل، كنز، ص ١٥٥-١٦٦. (ابن جريس).

(٢) مكتومي: نوع من أنواع التمور، ولونه في الغالب أحمر أو أصفر، ويؤكل رطباً، وهو لذيذ الطعم. ويوجد في بلاد الزلفي وما حولها من بلاد القصيم أكثر من ستين نوعاً من التمور، للمزيد انظر: عبدالرزاق المسعودي، الزلفي، ص ١٢٢-١٢٤. (ابن جريس).

الجزء الأشد ازدهاراً من المنطقة المأهولة، وعمق الآبار يتراوح بين عشر وأربع عشرة قامة، غاطسة في طبقة تحتية من الصخور الرملية الصلبة وغير مبطنة بالحجارة إلا في ستة إلى عشرة أقدام نازلة. والماء فيها عذب وغزير، وتستخدم الإبل والأبقار بصورة عامة لسحبه من أجل أغراض الري، بينما كانت أفضل بئر، حيث نصبنا خيامنا بجوارها تعمل يدوياً فقط لغرض محصور في إمداد مياه الشرب. وحفر آبار الري بشكل عام مستطيلة طولها (١٢) قدماً وعرضها ستة أقدام ويوضع في البناء العلوي منها دولابان أو أربعة على الأكثر. وعلف حيوانات الآبار كان وفيراً، في معظمه من حشائش النوصي (النوصي) الممتازة والمنتشرة في نفود الثويرات، التي اشترينا منها حمل جملٍ كاملاً بثمانية دولارات.

هناك عدد من المزارع المتناثرة على مسافات متفاوتة في المنطقة المأهولة يمكن أن تعد ضواحي الشماسية، ومنها بالتحديد الرويضة، وهي مجموعة من القصور في مساحة من حقول الذرة على بُعد نصف ميل نحو الجنوب، وقصور البرجسية على بُعد ميلين في الاتجاه نفسه، وتلك الموجودة في الدويحرة على بُعد ميل إضافي نحو الجنوب، التي يمر عبرها درب القوافل من عنيزة إلى الزلفي. وكل هذه المزارع النائية يزرعها ناس من الشماسية نفسها، الذين يديرون أيضاً رقعتين من حقول الذرة على بُعد ميل نحو الجنوب التي توجد بها مجموعة من القصور. ويرتفع برج حراسة يسمى الأبرق لا يمكن رؤيته من مخيمنا، وهو ينتصب فوق الجرف على بُعد ميلين في اتجاه روضة الربيعية، ويطل برج آخر مماثل على الطرف الجنوبي من الواحة[١].

وقد قيل لنا إن هذه المنطقة المأهولة أقدم من بريدة نفسها، وهي قد أخذت اسمها من قرية الشماس المتهدمة الآن خارج أسوار المدينة في جهة الشمال.

(١) للمزيد من الاطلاع على بلدة الربيعية، انظر: عبدالعزيز السنيدي، الربيعية، ص ٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

ويحتمل، بناءً على ذلك، أن يكون المستأجرون من العبيد المحررين قد جاؤوا من هناك بدعوة من أصحاب الأرض وجلبوا معهم اسم قريتهم.

لقد كنت أتمنى أن ننطلق انطلاقة مبكرة في الصباح التالي، لكن الشمس كانت في كبد السماء قبل أن نبدأ التحرك لمسير يوم كامل لمسافة ستة وعشرين ميلاً تقريباً. لم يمثل صعود أول جرف أي صعوبة لنا، ولكن الثاني لا يمكن التغلب عليه إلا بالسير في صف واحد طويل صاعدين منحدراً حاداً تتناثر فيه جلاميد مفككة صغيرة من الحجر الرملي. وفي ربع ساعة تمكنا من الوصول إلى قمة الجبل، وهناك برزت لعيوننا مشاهد واسعة من المنظر الكئيب المخيف، ففي الأسفل منا تقع المستطيلات الرائعة لبساتين نخيل الشماسية وقراها، ووراءها يمتد النفود لمسافة تنقطع في منتصفها بقناة وادي الرمة. وأمامنا يقع سهل أجرد منبسط من الصخور الرملية يغطي سطحه طبقة جيرية متكسرة هنا وهناك، وبعده ظهر الخط الطويل الأصفر لنفود الثويرات.

ينحدر القفر برفق نحو الشرق، ويقطعه بالعرض مجرى ضيق لقاع سيل يتجه عائداً إلى قناة الشماسية. وبعدها أصبح سطح الأرض وعراً وقاسياً تتناثر فيه بقع من الحجارة والحصباء تضفي عليه تنوعاً يخفف من الرتابة. وكلما تقدمنا يفسح هذا المجال لمنطقة من المرتفعات المتموجة مع جبال من الصخر ومنخفضات صخرية جرداء، تتجه بصورة عامة من الجنوب للشمال داخلة في وادي الرمة أو للشرق في قناة مستوِي أمامنا. ومشينا بجوار تل من الجلاميد السوداء العظيمة والتزمنا منخفض وادٍ صخري عرضه مئتا ياردة، ويمتد خلال سلسلة من الجبال المتقاطعة، كل واحد منها أقل نسبياً من سابقه. وفي وسطها صادفنا بقعة تعرف باسم رجوم الشيوخ[1]، ومنذ سنوات عدة مضت كان ابن سعود قد نصب خيامه هنا خلال

(١) رجوم الشيوخ: أي صخرات الشيوخ. والرجم عبارة عن صخرة، أو هضبة حجرية تسمى بهذا الاسم. (ابن جريس).

أحداث غزوة هجومية ضد شمر. إن موقد قهوته المؤقت من حجارة الصحراء لا يزال باقياً ليروي قصتها، وكذلك الدوائر المرتفعة التي تبين مواقع الخيام أو الملاجئ، وأحياناً تضفي نتوءات من الصخر الأسود تنوعاً على المنظر كلما نزلنا، عابرين أو نعيد عبور قاع شعيب صغير، في وادي مستوى عند تل برومة الأسود.

إن مستوِي في الحقيقة ليس أقرب إلى الوادي من السهل، فعرضه يبلغ ثلاثة أميال، ويشكل مرحلة انتقالية من الصخر الرملي في الصفراء من ورائنا إلى رمال النفود أمامنا. وكان عبورنا في منطقة مجاورة لمستجمع أمطار تتصرف منه مياه السهل على التوالي شمالاً وجنوباً نحو وادي الرمة، وحوض معشوشب بالنباتات مساحته نحو خمسة عشر إلى عشرين ميلاً باتجاه الجنوب يُعرف باسم أرمح. ويتكون سطح الأرض، الذي يظهر عليه في بعض الأجزاء علامات من فيضانات سابقة، من الطين الرملي تتناثر فيه حصباء سوداء وشظايا من الصخر الرملي مع جبال سوداء ناتئة، توجد فيها بقع من الصخر الأحمر الداكن.

وكلما اقتربنا من النفود، التي تمتد أمامنا في قوس مترامٍ لمسافات بعيدة الذي تلتف أطرافه حولنا، كان هناك غطاء هزيل من الرمل فوق الطين الأحمر مع شجيرات العرفج الغزيرة. وفي وسطها تناولنا طعام الفطور على أول جبل رملي منخفض. وخلال الميلين الأولين كان السير يسيراً بدرجة كافية، وبحر الرمال منقطاً بجزر من الصخر الأسود وثنايا من الطين المنخفض الأجرد. ثم سرنا داخلين في النفود الحقيقية ذات الرمل الأحمر، موجة فوق موجة وفي وسطها صادفنا جماعة من الصلبة قادمين من المجمعة[1]، رجالاً ونساءً يكابدون المشاق عبر الرمل المجهد وهم على حمير من سلالة غريبة خاصة بهم. ومعهم رجل يُدعى أبو حمزة، طاعن

(١) بلدة المجمعة تبعد عن مدينة الرياض تجاه الشمال الغربي بحوالي (١٧٥) كم. وتعتبر المركز الإداري لمنطقة سدير، تعرض لذكرها بعض المؤرخين العرب، وكذلك الرحالة الأجانب. للمزيد، انظر: عبدالكريم بن حمد الحقيل. المجمعة (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ص ١٨ وما بعدها. (ابن جريس).

في السن ذو شهرة محلية بأنه متسول محترف ومن أهل الرس[١]. إلى أين يتجهون؟ لا أعلم، لأننا لم نضيع وقتاً معهم أكثر مما استغرق توزيع دولارات قليلة كانت من حظهم، له هو ولبعض النسوة اللائي جئن معه يتسولن. ومقابل ذلك أخبرنا ببعض القرى الصغيرة التي تحتضنها رمال هذه النفود وهي قرى من بساتين النخل تضم ثوير التي أعطت اسمها للقفر الرملي الثويرات، والمنسق والقصيبة بيننا وبين الوادي الكبير، وآبار الأرطاوية (لا يجوز الخلط بينها وبين قرية الإخوان بالإسم نفسه) والحمودية نحو الجنوب والشمال من الزلفي على التوالي[٢].

ثم واصلنا سيرنا طالعين نازلين جبل بعد جبلاً من الرمال العميقة، الحمراء الجرداء، وكنا نمر أحياناً على منخفضات من الطين. وبصورة عامة تبدو محاور الموجات ممتدة شمالاً وجنوباً، ولكن لم يكن هناك انتظام حسابي (رياضي) مما سبب إحساساً بالارتباك إلى أن دخلنا ـ بعد صلاة العصر ـ أعلى وأكبر قسم من النفود، شريط زليغيف المكوّن من الجبال الشاهقة ذات الرمل الأحمر الصافي التي تفصل بينها أودية عميقة تتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. كانت القمم ترتفع لنحو ثلاث مئة قدم فوق قيعان الأودية التي امتد سيرنا فيها حتى الممرات المؤدية بين الآكام العالية من واحد إلى آخر، وهكذا أتينا إلى بستان نخيل العبد الصغير وتوقفنا عنده وهو في قاع طيني مستدير.

وهنا توجد قلة من الأبراج الطينية التي تأوي نحو عشرين من المستأجرين الذين يزرعون خمسة عشر فداناً من النخيل لمصلحة ملاك يقطنون في الزلفي[٣].

(١) للمزيد عن تاريخ وحضارة بلدة الرس في القصيم، انظر: عبدالله الرشيد، الرس، ص ١٦ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) القرى الأخرى التي ذكرت أسماؤها لي كانت: جنوب الطريق الرئيس: علقة ومر وكلاهما بستانا نخيل مع قصر أو قصرين، ونحو الشمال زحلولة وإثيلة ورجمية وروحية وحضية وأم أرطي ونثيل وحرارة وقويع وأبو طرقة. (فيلبي).

(٣) للاطلاع على معلومات أكثر من تاريخ وجغرافية الزلفي، انظر: عبدالرزاق المسعود، الزلفي، ص ٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

وقد انضم بعضهم إلينا ليشربوا القهوة وليجلبوا لنا تموناً من تمور الخضري المحلية التي تشتهر بأنها تسبب الاحترار. وكانت الحيوانات التي تحمل عفشنا، بسبب ثقل السير، قد وصلت متأخرة عنا بمدة طويلة، ولكننا استطعنا أن نشتري تيساً من راع محلي لعشائنا، الذي شاركنا فيه اثنان من القادمين الجدد اللذين لحقا بنا ومعهما رسالة من ابن سعود خلال النهار. أحد هذين الرجلين يُدعى زبارة صديق حربي قديم من أيام رحلتي للحجاز، والآخر بالتأكيد مطيري، يُقال له دابي والذي أرسل لينضم إليّ رفيقاً إضافياً، ولكنه، إما بسبب الفظاظة الفطرية في مزاجه أو بسبب التحيز الديني، جفاني عن عمد وحرص طول النهار على الابتعاد عني إذ لم يجلس بالقرب مني حتى على الطعام. ولا يلومن إلا نفسه على ضياع أفضل اللحم منه. كان رشيد، الذي أرشدنا حتى الآن، قليل المعرفة بجغرافية المنطقة، علاوة على الطريق نفسه. وهو يستمع بتذلل وخنوع لمناشدتي المتكررة لتوفير أدلة أكفاء دون أن يبدي نية للوفاء بطلباتي. على العموم كان هذا اليوم من السير خلال النفود قد أثار كل انفعالاتنا وشعرت فيه بالتعب قليلاً من رفاقي.

بالإضافة إلى رقعة النخيل المستديرة الرئيسة المذكورة آنفاً تضم قرية نخيل العبد مجموعة هزيلة من النخيل القريبة منها جهة الشمال مع برج حراسة رائع المنظر على المنحدر الرملي الفاصل بين القسمين. إن المياه الجوفية هنا شديدة القرب من سطح الأرض لدرجة أن النخيل الذي يمتص الرطوبة بجذوره لا يحتاج للري، بينما يسحب ماء الشرب من الثمايل[1] غير المبطنة التي لا يزيد عمقها عن قامة واحدة. لقد كانت قرية صغيرة غريبة مثل الأخريات الكثيرة غيرها في قلب النفود، ضخمة ورائعة مثل أي قرية يمكن أن ترى في الجزيرة العربية. إن فضلها

(١) الثمايل جمع ثميلة، ويقصد بها حفرة ماء (فيلبي). وقد تسمى في بعض أجزاء جنوب الجزيرة العربية بأسماء عديدة مثل: (ركية)، أو (وقرة) وأحياناً تلفظ (وكره) والاسم الأول أصح. (ابن جريس).

في إنقاذ حياة المسافرين يكمن في أن الطريق الرئيس الممتد في معظم أجزائه في منخفض أو سلسلة منخفضات وليس فيه إلا القليل من الجبال التي لا تمثل صعوبة تذكر. ويبلغ إجمالي عرضها على طول خط الطريق من سهل مستوٍ حتى سهل الزلفي نحو ستة عشر ميلاً، تبقى لنا منها أربعة أميال تقريباً لنقطعها عندما ركبنا لنواصل سيرنا في الصباح التالي.

بعد مسافة ميل من نقطة انطلاقنا وممر منخفض فوق مرتفع رملي يفصل بينها وبين رقعتين متناثرتين من النخيل والخضراوات تقعان في منخفض ضحل على يسار الطريق الرئيس. هذه كانت تسمى حمضية التي تختلف عن نخيل العبد في أنها تتمتع بالري الاصطناعي من آبار بعمق ثلاث قامات، تعلوها أبنية السواني العلوية المعتادة. كانت فوهات هذه الآبار، غير المبطنة بخلاف ذلك، محصنة بخشب الأشجار القوي. والأبقار، التي تعمل طالعة نازلة على منحدر قصير تسحب قرب الماء لتفرغها في قنوات الري التي ينمو على امتدادها البطيخ والشمام والقرع. وقد زرعت منطقة واسعة بفسيلات النخيل الجديدة في هذه القرية خلال العام السابق ويبدو أنها تزدهر. وفي أثناء مرورنا بالقرب من بقعة نخيل صغيرة أخرى على مسافة ربع ميل جرى نحونا رجل يعمل عند أحد الآبار وأهدانا عدداً من ثمار القرع[1].

هكذا جئنا إلى أعلى جزء من زيليغف الذي كانت قممه الجرداء الكبرى من الرمل نحتتها الرياح في أخاديد تنتشر كلها من حولنا. وأمامنا برزت للعيان قمة جبل طويق، وبعد دقائق قليلة عندما خرجنا من النفود الضيق إلى سهل الزلفي كانت قرى الواحة تتناثر أمامنا، وخلفها خط من الأجراف يمتد من

(١) للاطلاع على الأوضاع الزراعية في بلاد الزلفي وما حولها، انظر: عبدالرزاق المسعودي، الزلفي، ص ١٠١-١٢٤. (ابن جريس).

مرتفع خشم جزرة في أقصى الشمال حتى اختفى عن الأنظار في أفق الجنوب البعيد[١].

خلال عشر دقائق وصلنا أمام أسوار الزلفي الشمالية، أقصى قرية شمالية من القريتين، وشرعنا في نصب خيامنا أمام عيون أطفال القرية وهم يحدقون فينا باستغراب ولكن بصمت. وعلى مدى الساعة التالية أو نحوها كان هناك كثير من الذهاب والإياب بين القرية ومخيمنا، فقد جُلب الحشيش وسيقان الذرة للإبل، وخروف ومواد أخرى لطعامنا، وفي تلك الأثناء حاولت التوصل إلى نتيجة مع دابي الذي لا يزال مصراً في الظاهر على عدم التعامل معي. ورداً على سؤال مباشر عن هذا الموضوع أجاب أنه لا يُكن أي نية للجفاء أو الوقاحة، على أنني قلت له إنني لم أعد بعد الآن في حاجة إلى خدماته. وأضفت قائلاً: "انظر أنت يا، إنك تعترض على كوني كافراً. لقد خلقت هكذا وإن شاء الله سوف أبقى كذلك. والحمد لله! ولكني لست محتاجاً إلى مكرك وخداعك وخيانتك على الرغم من أنه هو ابن سعود الذي تخونه. كيف أستطيع أن أوافق على بقائك معي في هذه الظروف؟". عندئذ تركته يفكر في الموقف، وسرعان ما تلقيت إجابته بعد ذلك في بيت الأمير، حيث جلس بجواري يأكل تمراً من الطبق المشترك بيننا.

كان أمير الزلفي، سلمان بن بداح[٢]، غائباً عن بيته في زيارة لابن سعود مع

---

(١) جزيرة: موقع قريب من نفوذ الثويرات، ويذكر أنها منهل معروف. أشار إليه بعض الشعراء القدماء في أشعارهم، فذكره متمم بن النويرة أخو قيس بن النويرة بقوله:

فيا لعبيد حله أن خيركم
بجزرة بين الدعستين مقيم

وقال السكري: جزرة ماء لبني كعب بن العنبر، وقال في شرح قول جرير:

يا أهل جزرة: لا علم فينفعكم
أو تنتهوا فينجي الخائف الحذر
يا أهل جزرة إني قد نصبت لكم
بالمنجنيق ولما يرسل الحجر

انظر: ياقوت الحموي. معجم، ج١، ص ١٢٤، المسعودي الزلفي، ص ٢٩. (ابن جريس).

(٢) سلمان بن بداح من عشيرة الروقة من عتيبة، وهناك عدد من الأمراء الذين تولوا بلدة الزلفي لكل من ابن الرشيد، ثم ابن سعود، وبعضهم من أسرة آل بداح العقيبية. للمزيد انظر: سعود بن هذلول. تاريخ ملوك آل سعود (الرياض: مطابع الرياض، ١٣٨٠هـ) ص ٣٢، عبدالرزاق المسعودي، الزلفي، ص ٢٧-٢٨. (ابن جريس).

سلفه في الوظيفة، عثمان بن عثمان، الذي كتبت عن فصله من الخدمة بسرعة في مكان آخر. خلال غياب سلمان، كان أخوه، بجاد، يتولى المهام، وهو الذي دعانا لتناول القهوة معه، مشتكياً بكرم من تقصيرنا في إشعاره بقدومنا حتى يتمكن من إعداد الفطور وقت وصولنا ودعانا على العشاء في المساء، دعوة قبلتها بسرور لأنني قررت أن أقضي اليوم مستكشفاً القرى المتنوعة في الباطن كما كان يسمى السهل. لقد كان مجلسه، على الرغم من حجمه المعقول، بسيطاً بصورة شديدة وبائساً كما تعكسه الجدران الطينية غير المشذبة السوداء من الدخان وبلا أثاث خلاف شرائط الحصير المصنوعة في الأحساء والمفروشة على أرضية من الرمل.

وحكى لنا مضيفنا عن نبع جديد اسمه السيح ذي ماء عذب، اكتشف حديثاً لراحة القوم العظيمة الذين عاشوا سنين طويلة على الماء المالح الذي لا يُعرف غيره في هذه الأصقاع. ولقد بدا من المؤكد لي أن الماء الذي أعطانا إياه كان طيباً مثل أي ماء في الجزيرة العربية. وبعد دورة أو اثنين من القهوة أحضر بجاد بنفسه حصيراً عليه كوم ضخم من الأعذاق الكبرى لتمر الحلوة الطازج، أحمر اللون مثل الخضري، ولكنه ذو شهرة أفضل منه[١]. في هذه المنطقة كانوا بالفعل قد قطعوا أعذاق التمر من النخل، على الرغم من أن الطريقة المعتادة في القصيم أن ينتظروا حتى أول مطر في الموسم. وهنا كان فصل الخريف أو الفصل الفرعي الذي يشتهر باسم الوسم لم يبدأ بعد حسب التقدير المحلي[٢]، على الرغم من أن أسبوعين قد انقضيا منه في القصيم بالفعل. وسواء وجد أو لا يوجد أي تبرير طبيعي لهذا الفرق بما يقترب من شهر؛ لأن بداية الوسم ستكون قد جاءت هنا منذ عشرة أيام، في تصنيف الفصول لدى جيران شديدي القرب من بعضهم فإنني لا أستطيع أن أحكم على ذلك

(١) لمزيد من التفصيلات عن أنواع التمور في بلاد الزلفي، انظر: المسعودي، الزلفي، ص ١٢٢-١٢٤. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على مواسم الأمطار في جزيرة العرب، وأوقات نزولها ومسمياتها، انظر: عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. كتاب الأنواء في مواسم العرب (الهند: حيدر أباد، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) ص ١٤ وما بعدها. (ابن جريس).

بصورة موثقة على أنه لا يساورني أي شك في أن بعض التغير الحقيقي في الأحوال المناخية قد وقع. فقد اختفى الصيف في ليلة كما لو كان بالسحر. وسجل مقياس درجة الحرارة معي درجة أقل من ٦٢ درجة فهرنهايت في الصباح الباكر، وهي أقل درجة عرفتها منذ الربيع الماضي. كما أن حر الظهر أصبح أكثر لطفاً بصورة يمكن إدراكها على الرغم من وجود النفود.

إن الزلفي والقرى حولها في سهل الباطن تشكل منطقة منفصلة ومستقلة مع تشابهها وقربها مع كل من القصيم وسدير[١] والأخيرة هذه تبدأ بصورة صحيحة عند الغاط نحو خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب عند فوهة ممر طويق. إن قرية الشمالية أقدم هذه القرى، وسكان المنطقة، كما يتشكلون حالياً، يقال إنهم يعودون إلى خمسة أجيال مضت. ويتكونون بالكامل تقريباً من عناصر عتيبة[٢]، التي تنتمي إليها عائلتا الأمير الحالي والأمير السابق. كما أن الشمالية بسكانها البالغ عددهم حوالي ألف وخمس مئة نسمة ذات شكل دائري تقريباً، وكأنها محاطة بجدار بسبب ظهور بيوتها المتلاصقة. وعند الزوايا الناتئة توجد أبراج حراسة، وبالإضافة إلى المداخل الخلفية لبيوت مختلفة، توجد أربع بوابات عادية في جهات الشمال والشرق والجنوب والغرب على التوالي. وفي داخلها هناك انتظام شديد كأنه خطط طبقاً للتخطيط العلمي للمدن، فالشوارع مستقيمة وعرضها يتراوح من عشرة إلى خمسة عشر قدماً. ويرتفع مبنى كبير مثل الحصن عند الزاوية الجنوبية الشرقية، ولكن فيما عدا ذلك فالبيوت بسيطة ومتواضعة. وقد دخلنا القرية من البوابة الغربية لنذهب إلى بيت الأمير، وكان مصلى العيد، مسجد معتاد مبني من الطين، به

(١) تقع المجمعة، عاصمة سدير، نحو الطرف الشرقي من طويق بحوالي خمسة عشر ميلاً شرقاً أو جنوب شرق الغاط (فيلبي). للمزيد عن بلاد المجمعة، انظر: عبدالكريم الحقيل، المجمعة، ص ١٩ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من المعلومات عن قبيلة عتيبة وفروعها ومواطنها، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٤٣-١٥٠ (ابن جريس).

صفوف من الأعمدة على عكس المساحات المفتوحة المعتادة في أماكن أخرى، يوجد خارج البوابة نفسها وغير بعيد عن مخيمنا[١].

بينما كنا نجلس متحلقين انتظاراً للقهوة جاء رجل كبير في السن من قبيلة مطير وجلس بجواري، ولكن بعد لحظات قليلة، عندما أدرك الموقف على ما يبدو، نهض فجأة وأخذ مقعده عند أبعد جهة من موقد القهوة. ولم أتمكن من معرفة ما إذا كان ذلك بسبب الاحترام أو التعصب. على كل حال فالسكان الآخرون الذين جاؤوا وانضموا إلى الجماعة عند سماع النداء من الهاون ويده يتحدثون بحرية معي وبدا أنهم خالون من أي اعتراض على وجودي، على الرغم من أنهم لم يلقوا عليّ التحية بالتحديد عند دخولهم.

وعند عودتي لخيامنا كان رشيد مدركاً النواقص الماضية في وظيفته كدليل، وفيلسوف، وصديق لي قد أحضر غلاماً صغيراً من القرية الذي زعم أنه يبلغ خمسة أعوام من العمر وهو بالتأكيد لا يزيد عن سبعة. لقد كان الطفل من النوع العبقري، فقد جلس أمامي، ومضى يلقي قصيدة وراء قصيدة بطريقة شديدة الإعجاب. ولحسرتي يجب أن أعترف أنني لم أفهم إلا قليلاً من إلقائه، بيد أنني ذهلت من أدائه الرجولي لمقتطفات من ذخيرة غير محدودة على ما يبدو من الشعر والملاحم وأنبت نفسي بإعطائه هدية ثمينة من خمسة دولارات بعدما ألقى قصائد قصصية كثيرة[٢]. وقد ابتهج بشدة واندفع خارجاً من الخيمة وهو يدعو: "الله يغنيك، أي حفظك الله من الفقر والحاجة". وفي أثناء دعائه تعثر في حبل غير

(١) للاطلاع على جغرافية بلاد الزلفي وأهم معالمها، انظر: عبدالرزاق المسعودي، الزلفي، ص ٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) أولاد البوادي يمتازون في الغالب بالفصاحة والجرأة في الحديث مع الكبير أو الغريب. كما أن بعضهم يمتازون بذاكرة جيدة تحفظ الحكم والأشعار المختلفة. ونجد كتب التراث مليئة بنماذج من هؤلاء النوع على مر التاريخ. (ابن جريس).

ظاهر من حبال الخيمة وانفجر بالبكاء. وبعد مواساة الطفل المسكين من إصابته جرى عائداً إلى القرية سعيداً مثل عصفور صغير.

بعد صلاة الظهر جاء بجاد بنفسه ليأخذني إلى بيت واحد يدعى سليمان كنت قد قابلته في الصباح ودعاني للقهوة. وعندما طوقنا القرية نحو البوابة الشمالية وجدنا بيت مضيفنا في الشارع الرئيس المؤدي إلى السوق، وهو ساحة مربعة غير منتظمة بها خمسة وأربعون دكاناً تفي باحتياجات قرى الزلفي كلها[١]. كان مجلسه نظيفاً ومشيداً بطريقة حسنة من الجدران الطينية غير المزخرفة وضعت مخدة خصيصاً لي على حصير الأرضية الذي يشكل مع أواني القهوة كل أثاث الغرفة. ودارت القهوة، والشاي، والبخور على فترات زمنية متكررة بينما كان مضيفي والأمير بالنيابة يتحدثان إليّ عن ظروفهما. لقد أصبحت الحياة شديدة الغلاء في الزلفي بسبب الحرب؛ ولأنه لم تأت قافلة واحدة من الكويت خلال الأشهر الثلاثة الماضية. وكانا شغوفين بمعرفة متى قد تنتهي الحرب، وكنت أشك قليلاً في ذلك الحين أن الإجابة المتفائلة ستكون معقولة ومبررة.

والحجم الأكبر من تجارة الزلفي هو من نوع عمليات الشحن والنقل، والمكان يشبه بورصة السلع لمنطقة ذات اتساع عظيم[٢]، تضم قرى النفود وقرى الحمضة التي تعد الامتداد الجنوبي للباطن. بيد أن احتمالات التنمية الزراعية في الأخيرة تظل على ما يبدو موضوعاً من موضوعات التأمل المستمر هنا. فعلاوة على عين نبع السيح الجديد المذكور آنفاً فقد قالوا لي عن بقايا قائمة من نظام ري قديم عند حافة طويق على بُعد خمسة أميال جهة الشمال.

---

(١) لمعرفة بعض المعلومات عن الحياة الاقتصادية في بلدة الزلفي، وبخاصة التجارة، انظر: المسعودي، الزلفي، ص ٧٤-٧٥. (ابن جريس).

(٢) عن أهمية بلاد الزلفي التجارية وعلاقتها تجارياً بما حولها من البلدان، انظر: ابن خميس. معجم اليمامة، ج٢، ص ٣٩٥، المسعودي، الزلفي، ص ٣٧-٣٨. (ابن جريس).

هذه الآثار تدل على وجود نبع، ولكن باءت جميع الجهود لإخراجه إلى الضوء بالفشل. ثم ـ عندما انتقلنا إلى موضوع خارج المنطقة ـ ناقشنا ما إذا كان من الممكن أو من المفيد الوصول إلى مستوطنة الإخوان الكبرى في الأرطاوية الضخمة، كما قالوا، مثل بريدة وما تزال تتسع. وبصوت واحد أشاروا عكس ذلك. حتى قوافل الكويت ليس مسموحاً لها بأن تمر خلالها أو حتى تسحب من مائها، ناهيك أن تقضي ليلة هناك. وإشاعة من الكافر قد تجلب تماماً عش الدبابير هذا حول آذاننا. على العموم لم يكن بوسعي أن أعترض على مثل هذا القرار، وروضت نفسي على الامتناع حتى عن لمحة عابرة عن مكان سيئ السمعة.

في وقت لاحق خلال العصر مشيت متباطئاً لأزور بساتين النخيل والقرى جهة الشمال من قرية الشمالية. وكانت الإبل التي قضت يوماً قاسياً في النفود لدرجة أنها في هذا الصباح كانت ترعى بتهور من عشب الأضهر الأخضر وغير المحبب وقد نالت علفاً طيباً خلال الصباح مما جعلها تخطو بمرح فوق السهل الرملي المغطى بالرمث. وبعد ركوبنا لعشرين دقيقة وصلنا إلى منطقة شاسعة من أشجار النخيل الصغيرة والبطيخ والشمام، والقرع، وبعض القطن الذي يمتد نحو الشمال حتى المجموعة الرئيسة من النخيل مكتملة النمو. هذه مزرعة السيح التي تروى من آبار كثيرة تغذيها العيون. ويتراوح عمق هذه الآبار من ثلاث إلى خمس قامات، ويقال إنها اكتشفها صدفة منذ حوالي خمس عشرة سنة مضت رجل كان يحفر جُحراً بحثاً عن جربوع اختبأ تحت الأرض. منذ تلك الأيام تطورت القرية تطوراً كبيراً، واتسعت لمسافة ميل على طول الضفة اليسرى لشعيب عريعرة[1] الذي ينزل من مرتفعات طويق عند رقعة عريرة الصغيرة من أشجار النخيل وقليل من القصور في ثنية من

(١) هناك شعيب آخر، اسمه سمنان، ينبع من الجرف بعد مسافة بعيدة جهة الشمال بالقرب من بستان نخيل صغير بنفس الاسم. وهذا أيضاً يتدفق عبر الوادي وينحني جنوباً. (فيلبي). وقد ذكر فيلبي اسم عريعرة باسم (عريرة) والاسم الصحيح هو ما تم ذكره. انظر: ياقوت. معجم، ج٤، ص ١١٥، المسعودي، الزلفي، ص ٣٤. (ابن جريس).

الجرف وتمتد عبر الوادي حتى النفود. هذه المزرعة تتمتع بميزة عن كل جاراتها بأن ماءها قريب نسبياً من سطح الأرض، إذ إن مستوى المياه في الأماكن الأخرى كان عشر قامات.

وقد سرنا الآن الآن في القاع المغطى بالحصباء لشعيب عريعرة[١] حتى أتينا بعد ميل آخر من السير إلى مجموعة من أربعة بساتين كبرى تعرف باسم اللقاء الذي ترتكز المجموعة الرئيسة منه على حافة النفود مع وجود اثنين من البساتين أمامها وهما مفصولان عن بعضهما بمسافة ضيقة. وخلال مرورنا بين هذه البساتين من النخيل أتينا على البستان الرئيس الذي فيه قرية صغيرة، وبعد مسافة فاصلة توجد أخرى أكبر حجماً، وأخيراً واحدة كبيرة عند الطرف الشمالي، ومجموع السكان في القرى الثلاثة يبلغ ثمان مئة نسمة تقريباً[٢].

نحن الآن عند الطرف الشمالي من مزارع الزلفي، ولا يوجد شيء غير قصرين في بقعة متناثرة من أشجار النخيل تعرف باسم قصور العبد على بُعد ميلين في جهة الشمال تماماً، ثم استدرنا نحو الجنوب فوق درب واضح المعالم يمتد عبر القرية وبعدها باتجاه الزلفي. هنا قابلنا رجلاً كبير السن الذي حيانا بصوت ضعيف مرتجف، وقيل: إن عمره يبلغ مائة عام. وكان في الماضي أميراً على قرية اللقاء، ويدعى ابن فرهود، ولكنه أحيل من زمن طويل للتقاعد لشيخوخته وجاء محله ابن عمه، ابن دهش.

---

(١) قال ياقوت، عريعرة، تصغير عرعرة، وعرعرة الجبل، غلطة معظمة، وهو ماء لبني العنبر. وقالت امرأة من بني مرة يقال لها أسماء.

أياجبلي وادي عريعرة التي
نأت عن لوى قومي وحم قدومها

ويقول شاعر آخر:

عسى الحيا يروى زبابير زليغيف
ويسقي غروس عريعرة من قبالة

انظر: ياقوت، معجم، ج٤، ص ١١٥، عبدالرزاق المسعود، الزلفي، ص ٣٤. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن تاريخ وجغرافية الزلفي، انظر: المسعودي، الزلفي، ص ٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

على بُعد ميل أو أكثر وراء هذه البساتين رأينا بعض الآثار القديمة من قرية منزلة[١] العتيقة، وتتكون من قصر كبير وآبار متعددة على مسافة نصف ميل عن يميننا. وتقول الروايات المحلية إن هذه القرية وقصور العبد كانت القريتين الأصليتين في هذه المنطقة وكانت دائماً على عداء وضغينة. وسواء كان إمدادهما من المياه قد نفد أو لبعض الأسباب الأخرى فقد هجرت كلتا القريتان لصالح مواقع أخرى، فأصبحت الزلفي (أي الشمالية، التي نادراً ما تستخدم في اللغة المحلية) معمورة بأهل المنزلة واللقاء من منافستها.

بهذا انتهت جولتنا في القرى النائية وعدنا إلى المخيم، تاركين العقدة أو الزلفي الجنوبية، لنزورها عند استئناف سيرنا في الغد، واكتفينا بنظرة قاصية فقط من المخيم على سلسلة غير منقطعة تقريباً من البساتين على طول خط شعيب سمنان[٢]، والسلسلة هذه تضم من الشرق للغرب ثمائل وحيطان مع العقدة التي توجد أمامها نسبياً من طرفها الشرقي، ولغف الأقرب للنفود والتي يلتف الشعيب عليها في اتجاه الجنوب نحو بقعتي نخيل غيفة والطرغشة[٣] على بُعد ميل وثلاثة أرباع الميل باتجاه المجرى من لغف.

إن تجربة الطفل العبقري في الصباح قد خلقت لدينا انطباعاً إيجابياً محبباً عن السكان الشباب في القرية، فالعديد من الأرواح الجسورة التي تجمعت، قد

(١) قرية منزلة: اسمها في الأساس المنيزلة، وما زالت باقية حتى اليوم على شكل قصر قديم يسمى (قصر المنزلة) بقرب مقبرة قديمة فيها قبور طويلة توشك معالمها أن تندثر، انظر: السعودي، الزلفي، ص ٣٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) سمنان: بذكر أنه واد كان يسكنه جد أمرئ القيس ذي الحجر الكندي، ويقصد به موضع في ديار تميم قريب اليمامة. ويقال: سمنان من السمن شعيب لبني ربيعة الجوع من مالك وسمنان في الزلفي يقع على الطريق التي تصل بين بلدة الزلفي والأرطاوية. انظر: ياقوت، المعجم، ج٢، ص ٣٥١، ج٥، ١٢٨، للمزيد انظر: المسعودي، الزلفي، ص ٣٣. (ابن جريس).

(٣) الطرعَشة: روضة بالقرب من طريق مغيرا، يذكر أن الرمال قد طمرت مبانيها، لايزال فيها آبار ونخل، ويقوم إلى الشرق منها بقايا قصر قديم، يذكر أنها كانت ماء لبني العنبر باليمامة. (ابن جريس).

لازمت تحركاتي في القرية وحولها بفضول ودود، وتأتي لتسلم عليّ يداً بيد، تجربة فذة نادرة. بيد أنني لم أنظر في احتمال الاستماع لقصاد[١] آخرين أو راوٍ للملاحم القصصية غض السن في مجتمع صغير محدود، وبحجة التعب والإرهاق صرفت واحداً من أمثال هؤلاء المدّعين خشية أن أقضي المساء كله مستمعاً ودافعاً للهدايا لسلسلة متوالية منهم.

تناولنا العشاء مع بجاد والتهمت كثيراً من مأدبته الكريمة على الرغم من بساطتها من الأرز، والعدس، ولحم الضأن وهو يتحدث عن الحقائق والأحداث المعتادة في حياته القروية. وكانت الحدرة أو القافلة التي انطلقت إلى الكويت من شقراء عندما كنت هناك لإحضار الإمدادات لجيش ابن سعود قد وصلت أثناء النهار، وإبلها البالغ عددها خمس مئة جمل ترسم مشهداً رائعاً وهي تتهادى عند حافة طويق وتنزل المنحدر باتجاه القرية. وفي اليوم التالي سوف يواصلون الرحلة إلى بريدة[٢]، ولكن في الوقت الحاضر كانت الزلفي تعج بالحياة. إن الحشد العسكري من هذه المنطقة قد وصل، كما يقول بجاد، إلى أربعة آلاف رجل، ولكن مما رأيته وسمعته عن القرى المختلفة، فإن هذا العدد يقارب بدرجة معقولة إجمالي السكان كلهم[٣]، رجالاً ونساءً وأطفالاً. وحول مخيمنا لاحظت عدداً من الآثار القديمة عليها علامات من الإسمنت الجبسي على أن البناء الحديث يبدو بصورة رئيسة من الطين مع بعض البيوت المبنية بأكوام من الطين. والخشب وفير أو كان وفيراً، مع أن الطلب الشديد من مدينة

(١) يقصد فيلبي بكلمة (القصاد) أي من يقول القصيد، أو الشعر الشعبي، الذي شاهد بعض فتيان الزلفي يقولونه في حضرته كي يحصلوا على بعض النقود التي كان يوزعها عليهم. وظاهرة الشعر الشعبي، والأحاجي، والألغاز، والأمثال والحكم الشعبية منتشرة بشكل كبير في الجزيرة العربية. وقد قام بعض الدارسين بجمعها، لكن ما زال هناك الشيء الكثير لم يجمع ويدرس دراسة علمية أكاديمية. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن النشاط التجاري بين بلاد نجد والكويت، انظر: الهويمل، بريدة، ص ١٢٥-١٢٨، محمد الربدي، بريدة، ج٢، ص ٣٣٨-٣٤٦، حافظ وهبة، جزيرة العرب، ص ٥٦ وما بعدها، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥-١٤٩. (ابن جريس).

(٣) الزلفي (١٥٠٠)، والعقدة (١٠٠)، واللقاء (٨٠٠)، ولا يبقى إلا نحو (٧٠٠) في القرى الكثيرة الصغيرة (فيلبي). للمزيد عن قرى وجغرافية الزلفي، انظر: المسعود، الزلفي، ص ٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

الأرطاوية سريعة النمو قد أدى إلى زيادة زراعة الأثل في الباطن. وقد كان أهل تلك المدينة يذهبون بعيداً حتى القصيم ليحصلوا على خشب السقف. والكمرة القوية الطيبة من خشب الأثل يمكن أن يكون سعرها الآن باهظاً بما يصل إلى ثلاثين دولاراً.

بعد عودتنا إلى المخيم من حفل العشاء أرسلت لبجاد هدية من خمسين دولاراً، نصفها كان مقابل تكلفة العلف والإمدادات الأخرى، وزوج من النظارات الميدانية رديئة الجودة. لقد تأثر تأثراً بالغاً بمثل هذا الاعتراف بخدماته لدرجة أنه جاء بأقصى سرعة يسألنا إن كان يستطيع أن يفعل أي شيء إضافي لنا، وفي الصباح التالي أتى ليسلم علينا في الوداع. وقد ترك انطباعاً رائعاً من الود والصداقة في ذاكرتي فقد كان رجلاً طيب القلب حسن المظهر، أطول من المعتاد قوي البنية، وربما أقل من الأربعين في العمر.

في الصباح التالي انطلقنا عند انبلاج الفجر وفي ربع ساعة وصلنا العقدة، قرية مربعة مسورة من جميع الجهات ومساحتها نحو ثلاث مئة وخمسين ياردة. وكانت وصلة الأسوار في الشمال والشرق يعلوها برج، أما الأبراج الأخرى تتناثر على الأسوار وتفصل بينها مسافات متساوية. وفي وسط القرية تقريباً ارتفعت مئذنة طويلة مربعة مستدقة الطرف قليلاً نحو القمة. وهناك ممر مقنطر تحت الأبراج المركزية في الأسوار الشمالية والشرقية تؤدي للدخول من هذه الجهات للقرية، وقد خمنت أنه ربما توجد مداخل مماثلة في الجهتين الأخريين. وتبدو العقدة أكبر من الزلفي في المساحة الظاهرة، ولكن بيوتها أقل ازدحاماً على بعضها[1].

من هنا قضينا ربع ساعة من السير في رافد شعيب أم الذر[2] قد أوصلنا إلى سفح جبل طويق بعد أن مررنا على سد مبني بناءً ليحوّل مجرى الفيضان خلال

(١) لمزيد من التفصيلات عن جغرافية وتضاريس بلاد الزلفي، انظر: السعودي، الزلفي، ص ٢٨ وما بعدها. (ابن جريس).

(١) رافد شعيب أم الذر يصب في شعيب سمنان (فيلبي + ابن جريس).

عبّارة ذات قنطرة مزدوجة إلى المجرى الرئيس. وقد سرنا ببطء كما لو كنا نزحف لمدة قصيرة فوق أرض وعرة وفيها أهجنا سرباً صغيراً من طيور الصيد[١]، التي هربت جاثمة على الأرض، ولكنها لم تطر، ثم زحفنا متسلقين مساراً صخرياً حاد الانحدار حتى وصلنا قمة الجرف، التي لا تزيد عن خمسين قدماً في الارتفاع عند هذه النقطة، حيث توقفنا لحظات قليلة لنلقي نظرة أخيرة على سهل الزلفي. ثم انطلقنا مرة أخرى نحو الشرق.

٣ـ الأرطاوية منبع الإخوان

أثناء شربنا القهوة في بيت الأمير صباح اليوم السابق توسلت لمضيفنا أن يوفر لي دليلاً كفأً بحق لما تبقى من الرحلة، ولكن رشيداً تدخل قائلاً: " لا تقلق على ذلك، فقد أعطانا الله الرجل الذي تحتاجه فعلاً، إنه يعلم كل شجرة وحجر من هنا حتى الكويت". فأجبت وما فائدة قولك هذا؟ لقد قلت الشيء نفسه تقريباً كل يوم منذ مغادرتنا الرياض، ولم أر إلا قلة من الأدلاء المهرة، وأصر على رأيه قائلاً: "اترك عنك هذا الكلام انتظر وسترى، إنه صلبي الذي وجدته". وقد بدأت أفكر، والشك ما زال يساورني في أن كلماتي قد آتت ثمارها، لاسيما عندما جاء رشيد، في وقت لاحق من الصباح برجل أقسم بمعرفته كل شيء لعمه[٢]، دليلنا الجديد. هكذا رتبنا على وجوب نوم الأخير في مخيمنا حتى يكون مستعداً للرحيل مبكراً.

لقد كنت أنا نفسي أفكر في الذهاب لفراشي عندما دخل الأمير ورشيد خيمتي وجلسا لحديث أخير فيما حسبت. فقال رشيد بانفعال عصبي: "قل له"، وثارت ثائرة

---

(١) هذه الطيور كانت بلا شك من نوع السيسي، وليست طيور الحجل كما كنت أتصور إلى أن فجر الخبراء خطئي، انظر آر. تشيرفان في كتابه: في شبه الجزيرة العربية المجهولة (فيلبي).

للمزيد انظر: تفصيلات أكثر في كتاب تشيزمان باللغة العربية، والذي قامت مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بترجمته وتدقيق معلوماته. (ابن جريس).

(٢) يقصد بكلمة (لعمه) أي عم رشيد. (ابن جريس).

الشكوك في صدري. لقد فهم الدليل أنا سوف نسافر بالدرب الرئيس المعروف باسم منشرحة وعلى هذا الطريق فقط يقوم زعمه بمعرفة كل شيء. والطريق الأكثر ميلاً نحو الجنوب الذي نوينا أن نسلكه كان مجهولاً له، وفي كل الأحوال سوف ينام مع زوجته هذه الليلة. وسوف ينضم إلينا في الصباح على أمل أن نكون قد غيرنا رأينا بشأن الطريق لنتمتع بأن كامل معرفته تحت تصرفنا. فأجبت بأنني سوف أذهب بأي طريق يحبه، فكلاهما جديد تماماً بالنسبة لي، ولكنه يجب عليه أن يأتي إلى مخيمنا فوراً ليكون مستعداً. وانصرف الأمير، على ما أظن، بقلب كسير كئيب، مدركاً أنه كان يؤجل فقط خيبة حتمية، ولكن حتى هو نفسه لم يكن مستعداً لما حدث في الحقيقة. ومهما كانت الظروف فقد نمت لنصف ساعة عندما أيقظني صوت هامس بجوار فراشي. لقد ذهب بجاد إلى بيت الرجل ليفاجأ بأنه قد شد ذلوله وهرب دون أي تفكير في حضن زوجته. وقال الأمير: «هل تسمح لي أن أحرق بيته تماماً! إنني مستعد لمعاقبة الرجل حسب توجيهك". فأجبت "لا، لماذا ينبغي أن يصاحبني إذا لم يكن يريد؟ إنني فقط طلبت من رشيد أن يعثر على دليل لي، وهذا ما يحدث دائماً عندما أطلب منه خدمة. فكل ما يستطيع أن يفعله أن يتكلم بصوت عال بلا طائل". عندئذ بدأ رشيد يتحدث عن الجهود الشاقة التي بذلها. وإذا استطعت الآن أن أعفو عن دابي فسوف يكون كل شيء على أحسن وجه. على أنني رفضت أن أفعل ذلك، وفي اليوم التالي اكتملت المسرحية الصامتة ونلت انتقاماً وفيراً ومرضياً. لقد تبعني دابي مثل كلب ضُرب بالسوط، وظل دائماً في مرمى السمع، وأظهر رفاقي اهتماماً مذهلاً بالمعالم الجغرافية في السير على أمل أن أجد شعاعاً من نور في الإجابات الصاخبة من الدليل الكاذب.

في البداية مضى كل شيء على ما يرام، فطويق هي طويق ولا يمكن أن تكون شيئاً آخر، هضبة كلسية قاحلة تنحدر برفق مرتفعة حتى حد فاصل، ومنه تنحدر برفق نازلة. وخلفنا يقع الخط الطويل للرمال الوردية اللون التي عرفناها من قبل

باسم الثويرات. على بُعد عدة أميال نحو الشمال كانت علامة خشم جزرة تبين النقطة التي عندها يغرق طويق إلى الأبد في بحر من الرمل. وعلى يسارنا في الأمام ترتفع تلك الرمال في جبل عظيم يسمى نفود الضويحي[١]، وتمتد نحو الجنوب بجوار قفر حمضة مجزّل الصخري، وراءها جبل مجزّل نفسه وآخر يُدعى جبل وديعان يتوازيان مع مسارنا على اليمين ويحجبان المجمعة. عند هذه النقطة لا يتجاوز عرض الهضبة ثلاثة أميال، وانتقلنا منها إلى سهل التربة الطفلية يسمى السبلة[٢] مما يكسوه من الرمث والشيح، انطلق طائر السمان في رعب بمفرده، بينما نرى الجربوع يلعب حولنا من حفرة إلى حفرة. وبعد مجموعة من أشجار الطلح عبرنا المنخفض الأوسط في السهل، وهو قاع رملي لمجرى مائي يتجه نحو الشمال الشرقي إلى روضة عقلة[٣] التي يوجد فيها بئر ماء. كان المنخفض ثرياً بالنباتات والشجيرات، وفيه اختبأ زوج من الحباري اللذين خفقا بجناحيهما مبتعدين في كسل قبل اقترابنا.

هناك قاع آخر لمجرى مائي فيه خط من شجيرات السدر والسلم يقطع دربنا متجهاً نحو الشمال إلى النفود الموازية لنا الآن، ثم دخلنا في قفر حمضة حث انسل ثعلب خلسة فوق سطح أسود كما لو كان مكسياً بطبقة من رماد الفرن. وأجبرتنا بقعة من شجيرات العرفج على التوقف لفطور الجمال والرجال، وكان نصيبنا لحم الغزال المجفف (جلّه) الذي اشتريناه في الزلفي مع الأرز وماء الزلفي الممتاز. ثم واصلنا السير فوق سهل صخري قاحل حتى منخفض يتجه نحو الشمال الشرقي،

---

(١) نفوذ الضويحي: يعرف أيضاً باسم (نفوذ السبلة). عبدالرزاق المسعودي، الزلفي، ص ٤٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) السبلة: روضة دارت فيها معركة بين الملك عبدالعزيز وبين الإخوان، انتهت بهزيمتهم في (١٣٤٧/١٠/١٩هـ) (١٩٢٨م)، وما زال فيها بقايا وآثار الموقعة ومقابر القتلى في هذه الحرب. للمزيد انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٢٢١-٢٣٧. (ابن جريس).

(٣) روضة عقلة: يطلق عليها أيضاً (روضة العقل). المسعودي، الزلفي، ص ٢٥ وما بعدها. (ابن جريس).

اسمه الشبيرمة على وجه التحديد بسبب نمو نباتات الشبرم فيه والتي امتزجت بنبات الميرمية الصحراوي، ووراءه يقع سهل حصوي شاسع. يمتد جبل مجزّل المنخفض أمامنا، مع تل ومروى أم غور على مسافة بعيدة من جهة اليمين.

وبعد سير طويل وصلنا أفق الجبل نفسه، وسرنا بمحاذاة رأس وادي شعيب[١] الذي يمتد نازلاً عبره نحو الشرق، بين ضفاف منخفضة تبعد بينهما مسافة ميلين، وعندما سئل دابي، بصوت جهوري لتنبيه آذاني غير المنتبهة في الظاهر قال لنا إن هذا هو شعيب بطيره الذي سوف يوصلنا إلى آبار الديجاني هدفنا الحالي. وهكذا واصلنا السير على طول الطريق المتعرج لقاع مجرى السيل، نعبره ونعيد عبوره، بينما الوادي يضيق إلى نصف ميل أو أقل. وفجأة، قرب منتصف فترة العصر، أدركنا أغناماً سوداء ترعى على طول الضفة اليمنى للوادي وتعجبنا متسائلين عن متى أو كيف جاءت هنا كل هذه المسافة ومن أين؟ ثم مشينا مارين بقطيع صغير معزول تحرسه النساء، حيث تقدمنا بسؤالهن: "وش بُعد الماء؟"، أي كم يبعد المروى عن هنا؟ فأجبن مشجعات لنا: "قريب ستكونون هناك قبل غروب الشمس". وسألتهن: "هل هي الديجاني أم القيعية؟" وأحدثت إجابتهن ذعراً في صفوفنا: "لا، يارجّال ـ الديرة[٢] ـ الأرطاوية !!". ومضيت في طريقي دون إبداء أية ملاحظة، ولكن دابي الذي كان خلفي لحقني وعليه علامات بادية من الارتباك والقلق. لقد عزمنا على تفادي الأرطاوية مثل خوفنا الطاعون، وهو دليلنا، بغلطة مضحكة بسبب ثرثرته عن شعيب بطيرة قد قادنا تقريباً إلى باب عرين الأسد. وواصلت طريقي على الرغم من توسلاته بأن نتحول جانباً لنصعد المنحدر عن يميننا، وبدا لهم أن كارثة جهل الدليل سوف تكتمل بعنادي. ولكي أصرف انتباههم، مع أنني ليس عندي أدنى نية في

(١) هذا كان في الحقيقة رأس شعيب الأرطاوية. (فيلبي).

(١) «لا، يا رجل! المدينة».. (فيلبي).

المجازفة بجلدي في الأرطاوية، ذكّرتهم بأنه قد حان لهم وقت صلاة العصر، وأنخت بعيري على الرمل الناعم في الشعيب، وأخرجت غليوني وأشعلته. ثم أدوا صلاتهم بقلق وتوسلوا إليّ أن نتعجل في مغادرة هذا الدرب اللعين. فقلت لهم إنني سوف أنتهي من غليوني أولاً. ثم قلت للدليل: "إنك لدليل رائع، أليس كذلك؟ لأنه، لولا هؤلاء النسوة اللائي تحدثنا معهن لتونا، لكنا الآن على أبواب الأرطاوية. ألن يضحك ابن سعود عندما أكتب له قائلاً إن دابي قد أخذنا للأرطاوية بينما هو يظن أنه متجه إلى الديجاني؟".

بحلول هذا الوقت أصبح رشيد مضطرباً من الخوف حيث أذعنت لتوسلاته. وصعدنا المنحدر لنجد أنفسنا على ما يشبه التل[1] وفي وسط قطعان الماشية. وقد اضطر دابي الآن إلى أن يسأل القوم الرعاه (الذين كانوا رجالا هذه المرة) عن الطريق والذين تدل أغطية رؤوسهم البيضاء دلالة واضحة على الحماسة المتقدة في إيمانهم على الرغم من أنهم لم يلاحظوا أو يعثروا على أي شيء فيه خطأ فينا. تبدو التلال قاحلة جرداء بصورة شديدة لا تصلح للرعي، ومع ذلك كان هناك بعض العرفج والحشائش المتفرقة في التجاويف والمنخفضات، التي منها أخيراً صعدنا إلى هضبة تمتد نحو الشرق لميل حتى سهل منخفض، وفي وسطه، في بيئة موحشة منفرة تماماً، تقع مدينة الأرطاوية.

يبدو أن باركلي راونكر (Barclay Raunkiaer) كان آخر أوروبي يتجاوز هذه البقعة، وذلك في (١٩١٢م)[2]، كما قد يظهر، عندما ما لم يشيد فيها بيتاً. ولم تمض ستة أعوام ونصف إلا وبرزت مدينة فيها ما لا يقل عن (٠٠٠، ١٠٠) نسمة، وقد كنت

(١) من هذه النقطة كان مسار شعيب الأرطاوية واضحاً للعيان لنحو ميل متجهاً نحو الشمال الشرقي حتى شاع في ثنايا الهضبة التي بعدها ويبرز من جديد في سهل الأرطاوية. (فيلبي).

(٢) (١٩١٢م) يقابل التاريخ بالهجري عام (١٣٣١هـ). (ابن جريس).

أول أوروبي يلقي عليها نظرة من بعيد. منذ ذلك الحين ربما قد أصبحت عاصمة حقيقية للتعصب المتزمت، ولكن لم يزرها أي أجنبي. ولأنها أول مستوطنة يؤسسها الإخوان، فإنها تعد مثالاً على التجديد الوهابي، الذي بالتوجيه الحكيم والماهر من ابن سعود قد جلب نعمة السلام والأمن، وإلى حد ما الوحدة للجزيرة العربية[١].

إن المدينة التي نظرت إليها خلال منظاري من مسافة ثلاثة أو أربعة أميال تقريباً كانت علامة بارزة في التاريخ، وبالفعل في هذا الوقت كانت مرهوبة في طول الجزيرة العربية وعرضها، ويتجنبها حتى المسلمون الذين يعتنقون عقائد الوهابية بمعناها الواسع. وهي تخضع للافتراء وتشويه السمعة والصورة والدعاية المعادية في مجالس الحجاز وحتى في غرف الانتظار بالمجلس العربي في القاهرة[٢]. إن انتصار الحركة على الرغم من كافة العوائق التي وضعت في سبيلها ودون أسلحة إلا البنادق المتفرقة والإيمان المتقد ليعتبر واحداً من الأحداث الأشد إثارة وحسماً في التاريخ.

تقع المدينة شمال شرق من نقطة رؤيتنا، مقارنة ببريدة؛ لأنها تمتد منفرجة الساقين على جبل في وسط سهل متموج، مدينة كبيرة مسورة وأسوارها الغربية محاطة ببرج عظيم على كلا الطرفين، وكانت ترى بوضوح، مع ذلك الجزء من داخلها الذي يشغل المنحدر على جانبنا. ولم أتمكن إلا من رؤية

(١) دبلوماسية الملك عبدالعزيز وحكمته ودرايته بعلوم السياسة، وكذلك معرفته بطبيعة مجتمع الجزيرة العربية. كل هذه الأمور وغيرها جعلته (بعد توفيق الله عز وجل) يستطيع جمع شتات القبائل المتناحرة المتصارعة في أنحاء البلاد حتى تكون موحدة تحت راية واحدة شعارها (لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله). للمزيد عن صفات وعبقرية الملك عبدالعزيز، درمولين، الملك ابن سعود والجزيرة العربية، ص ١٨ وما بعدها، فيلبي، العربية السعودية من سنوات الفحط إلى بوادر الرخاء، ص ٢٣ وما بعدها، عبدالله التركي، الملك عبدالعزيز: أمة في رجل، ص ٣٣ وما بعدها، إبراهيم السماري، الملك عبدالعزيز الشخصية والقيادة، ص ٢٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) المجلس العربي في القاهرة: هو أحد المواقع الحساسة للحكومة البريطانية، والذي يوجد به العديد من الخبراء الإنجليز الذين يدرسون أحوال المجتمع في الشرق الأوسط، والتي على ضوء تلك التقارير تتخذ الحكومة الكثير من قراراتها حيال هذا الجزء من العالم والمستعمرات آنذاك من الحكومة البريطانية وبعض الحكومات الغربية الأخرى. (ابن جريس).

جزء من السور الجنوبي، حيث كان الباقي محتجباً وراء جبل متقاطع والذي منعنا أيضاً من رؤية الجهتين الآخريتين. والبيوت مبنية من الطين، وتقع ضاحية متناثرة من القصور والأكواخ خارج المدينة المسورة على بُعد ميل للشمال، لا ريب أنها حول موقع الآبار التي جعلت هذا المكان في الماضي نقطة توقف هامة على طريق الكويت. من النباتات لا يوجد أي أثر، على الرغم من أنه قد قيل لي: إن النخيل قد زرعت حديثاً وإن الذرة والخضراوات قد زرعها الأهالي لتوفر احتياجاتهم. تقع النفود على مسافة ميلين تقريباً وراء المدينة، بينما البطين كما يُسمى الوادي، كان سهلاً متموجاً شاسعاً بين هضبة مجزّل وأقصى الطرف الشمالي للعرمة مجرد جبل منخفض.

بعدما أمتعنا عيوننا متعة بالغة بالمدينة المحرمة نزلنا في وادي شعيب بطيره الموازي ونصبنا خيامنا للمبيت في قاعة بين كتلة من شجيرات السدر. وعلى مسافة ميل تقريباً فوق وتحت هذا الوادي تتناثر حفر مائية غير مبطنة لا حصر لها، منها عشرون أو أكثر تحتوي على الماء، على الرغم من أنه في معظم الحالات قذر ومغطى بالطين الأخضر. والآبار الأكثر نظافة فيها مياه طيبة بشكل ملحوظ، وعمقها بين ثلاث قامات في الأرض المرتفعة على كلا الجانبين إلى أقدام عديدة في قاع السيل نفسه، الذي يتكون من حصباء رملية ويبلغ عرضه ثلاثين ياردة تقريباً. والسطح حول الآبار كان أسود بروث الأغنام، ويمتلئ بكل ما في الكلمة من معنى بحشود كثيرة من النمل الأسود الكبير الذي جعل الإبل تفر مذعورة عند المروى[1]. وقبع نسرٌ وحيدٌ في سكون، منتفخاً من وجبة حديثة، ولم ينهض متثاقلاً إلا عندما اقتربت منه لأتفحصه. وأصبحت سقيا إبلنا سهلة باكتشاف دلو وتجهيزات أخرى في إحدى الحفر المهجورة، لا شك أنها من ممتلكات بعض الرعاة من المدينة. وانتهى اليوم

(١) المروى: أي مكان سقاية الحيوانات والتزود بالماء لاستهلاكات الانسان. (ابن جريس).

بعشاء من الأرز ولحم الغزال المجفف، وبلمحة من الغضب العصيب بسبب الخلافات في النهار. بيد أنني كتمت في السر متعتي بالرؤية غير المتوقعة لمدينة عجيبة، التي نلنا منها نظرات خاطفة إضافية خلال الجزء المبكر من سيرنا في اليوم التالي لمسافة ثلاثة عشر ميلاً فقط حتى الديجاني.

بعد أن تتبعنا وادي بطيرة لمسافة ميل إلى أسفل حتى مخرجه من الهضبة حتى البطين انحرفنا نسبياً نحو الجنوب من مساره الشرقي، وبعد أن عبرنا قاع شعيب الأرطاوي المليء بالحصى، أتينا في الوقت الملائم إلى منخفض يسمى دبان الذي عندما يتجه نحو الشمال يلتحم باثنين من مجاري السيل ذكرناهما آنفاً ليشكلوا معاً المجمعة. وهذه تلتقي بشعيب الأرطاوية لتكوِّن المنخفض أو الحوض الذي تقع فيه آبار الأرطاوية نفسها.

بعد دبان سرنا برتابة فوق تلال إلى أن أتينا على منحدر عرمة الصخري المرتفع برفق، ومن قمته المرتفعة لما لا يزيد عن مئة قدم فوق البطين نظرنا إلى أسفل إلى حوض قيعية الدائري الواسع، على بُعد ميلين أمامنا، وكان مكسواً بالخيام السوداء[1] لبني عبدالاله (مطير)، تتراقص في السراب. وتحوّلنا جانباً، على كل حال، على امتداد قمة الجبل ثم انحدرنا برفق نازلين لدائرة الديجاني الكبرى، التي عند حافتها الجنوبية الشرقية توقفنا في هذا اليوم.

(١) توجد حوالي مائتي خيمة منها والشيخ المسؤول كان ابن ضمنة. (فيلبي) وقد يطلق على هذا الشيخ أيضاً اسم (ابن ضمناء) (ابن جريس).

٤ـ الطريق الصحراوي

حتى عهد قريب نسبياً كانت الزلفي أول مكان مأهول على درب القوافل القادمة من الكويت إلى المدينتين التوأمتين الكبيرتين في القصيم. هذا الشرف انتقل الآن إلى الأرطاوية، غير المضيافة كما هي الآن للأجنبي عابر السبيل. وهكذا تتقلص الصحراء بثلاثين ميلاً تقريباً. ومع نمو حركة الإخوان سوف يحمل منخفضا الديجاني والقيعية بمرور الزمن نصيبهما من البيوت، والمراوي جهة الشرق سوف تتحول بالمثل إلى مساكن للبشر. إن مخاوف وأهوال الرحلة في الصحراء الكبرى بين وسط الجزيرة العربية والخليج العربي محكوم عليها بالفناء بسبب التطورات الطبيعية، وهذه التطورات سوف تتسارع الآن نسبياً بالإنتاج الحديث من صناعة الإنسان، ولو كانت صناعة الإنسان الغربي، فقد اجتازت السيارات الجزيرة العربية مراراً أكثر من الأوروبيين.

وفي العهد الذي أكتب عنه لم تكن السيارة معروفة في بلاد الوهابيين، ويفصلنا عن الساحل مائتا ميل من الصحراء القاسية، تقطعها عدد من الدروب البديلة المتقاربة من بعضها في المنطقة المجاورة لمقاصدها النهائية الشرقية والغربية. والدرب الذي اخترناه سوف يصل إلى الماء بعد ذلك عند آبار القرعاء على مسافة خمسة وثمانين ميلاً، ولا يوجد ماءٌ مرة أخرى إلا في الصبيحية بعد خمسة وتسعين ميلاً إضافياً داخل حدود إمارة الكويت. لمثل هذه الرحلة يجب أن تكون الإبل قد ارتوت تماماً من الماء، وكان وصولنا المبكر والراحة الطويلة خلال النهار في ديجاني قد منحها فرصة كافية لترعى حتى التخمة.

يبلغ قطر دائرة منخفض الديجاني نحو ميل، والآبار كانت موزعة في مجموعتين كبيرتين تعرفان باسم الحرملية (جنوب) وأم الفناجين (شمال). ويختلفان في العمق من عشر إلى اثنتي عشرة قامة، ويحتويان على ماء عذب وغزير. والآبار غير مبطنة ومحفورة بصورة بدائية، ويبلغ قطر فوهة الواحدة ثلاثة أقدام، ونازلة

تحت طبقة الحجر الجيري تحت السطح. وترقد مجموعات من الأغنام والماعز حول الآبار طول النهار، وخيام الرعاة التي يبلغ عددها خمساً وسبعين خيمة تتناثر في المنخفض، وفيها بدو مطير ومجموعات من فريثان وحتى الغطغط.

من الطبيعي أن لا تتاح لنا فرصة للتحدث بلا كلفة مع المواطنين المختلفين في قريتي الإخوان، ولكن زارنا بعض الرجال من مطير. لقد كانت طريقة نطقهم مميزة وغريبة في حديثهم، والحبس الخفيف للنفس في الحلق يضفي عذوبة موسيقية بهيجة على كلامهم، والذي أعتقد أنه أعذب ما سمعت في الجزيرة العربية. حديث ذو رقة أنثوية على شفاه رجال. وأخبرونا بغزوة حديثة في المنطقة المجاورة لقرية مبايض الخاصة بالإخوان قرب المجمعة والتي خلال أحداثها استولت جماعة من العجمان على بعض قطعان من الإبل، ويُحتمل أن يكونوا الآن قد انطلقوا بها تماماً في طريق عودتهم مع غنيمتهم نحو إقليم الكويت الذي يأوون فيه ليطلقوا سهام مضايقاتهم الصغيرة على ابن سعود[١]. كانت هذه الأخبار طيبة من ناحية ما بالنسبة لنا؛ لأن المهاجمين كانوا أمامنا وليسوا خلفنا. ومن حسن حظنا أننا لم نصادفهم ونصطدم بهم في اليوم السابق، حيث إن دربنا لابد أنه يتقاطع مع دربهم، على الرغم من أنهم في الغالب قد قطعوا معظم سفرهم بالليل. ومع ذلك، في هذا الوقت يحتمل أن تكون كل من شمر والعجمان على أهبة الاستعداد للحرب، وكان أمامنا وقت عصيب كلما اقتربنا من حدود الكويت، وهي واحدة من أشد الأجزاء اضطراباً في جزيرة العرب[٢].

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن العجمان في الأجزاء الشرقية من الجزيرة العربية ودورهم السياسي والعسكري مع بعض القوى في الجزيرة العربية كابن سعود وابن الرشيد، وغيرهما، انظر: الريحاني، نجد وملحقاتها، ص ٢٢٥، ابن هذلول، ص ١٠٥، محمد الأحسائي. تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد (الرياض، ١٩٦٠م) ص ٢١٤، وهبة، جزيرة العرب، ص ٢٣٩، السعدون، ص ١٧٠ وما بعدها، عبدالعزيز الرشيد، تاريخ الكويت، ص ٢١٤، خزعل ج٢، ص ٢١٧. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن أوضاع الكويت السياسية خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري والعشرين الميلادي)، وعلاقتها ببعض القوى السياسية في الجزيرة العربية. انظر، السعدون، ص ٥٢، وما بعدها، سيف مرزوق الشملان. من تاريخ الكويت (القاهرة، د.ن، ١٩٥٩م) ص ٣٤ وما بعدها، ديكسون، الكويت وجاراتها. ترجمة عبدالله الحاتم (بيروت، ١٩٦٤م) ص ٥٣ وما بعدها، حافظ وهبة، جزيرة العرب، ص ٧٦، ٢٥٧. (ابن جريس).

قضيت معظم النهار هادئاً في خيامي، وبينما كنت أتنزه متجولاً في المساء صادفت غلامين صغيرين لهما شعر كث من البدو يلعبان لعبة بسيطة بدا أنها تبعدهم عن شرور أخرى لساعات حتى النهاية. فكل واحد بدوره كان يرمي قرص صفيح صغيراً في الهواء للآخر ليصوّب عليه حجراً بالنبلة، وعلى الرغم من أنه لم يصبه إلا مرة واحدة في الدقائق الخمس التي وقفتها مشاهداً اللعب، إلا أنه كان من الواضح أن هذه الطريقة في التصويب بقوة على هدف ما تمثل إعداداً ممتازاً للحياة البرية في الصيد والرعي التي عليهم أن يحيوها[١]. في ذلك المساء كان عندنا نعجة للعشاء، ومن رحمها استخرجوا حملاً كامل التكوين عند الذبح. لقد كنت أتخيل دائماً أن العرب لن يبيعوا نعجة حاملاً للذبح. وقد كُتفت الذبيحة بربطها على عمود يمتد على أكتاف رجلين بينما بدأ الباقون في سلخ الجلد كله قطعة واحدة وتقطيع الأوصال. وقد شارك كل شخص بصورة واقعية مشاركة فعالة في هذه العملية، وعندما جاءت امرأة عجوز تتسول منا تلّقت الحمل الجنين، والأقدام والأحشاء من الشاة، وقربة قديمة مهترئة وبعض التمر والسكر. هذه الأصناف المتنوعة حملتها معاً في طيات ثوبها القذر، وعندما انصرفت وهي تدعو الله لنا لاحظت أن أحشاء الشاة كانت موضوعة فوق السكر[٢].

في اليوم التالي، التاسع من أكتوبر، عبرت الدهناء للمرة الثالثة في خط يمتد إلى حد ما جنوب الخط الذي سلكته في رحلة عودتي من البصرة خلال إبريل الماضي لأنضم مرة ثانية إلى ابن سعود. وكنت أتعجب في ذلك الحين كيف سيستلم النتائج العامة للبرنامج الذي ذهبت إلى الحجاز ومصر لمناقشته. منذ ذلك الحين

(١) هناك أنواع كثيرة من الرياضات التي كانت تمارس في الجزيرة العربية خلال القرون الماضية، ولكنها اندثرت اليوم، لأنه حل محلها العديد من الرياضات الحديثة التي نشاهدها عند الناس اليوم. (ابن جريس).

(٢) هذا الوصف الذي يذكره هذا الرحالة يدل على الجوع والفقر الذي يعيشه الناس آنذاك، فلا يمانعون أكل وشرب كل ما يجدون نتيجة للحاجة والفاقة التي يعيشونها. (ابن جريس).

تطورت الأحداث بشكل حسن وإيجابي، وبدا أن هناك فرصاً مواتية لتطورات كبرى. ومع ذلك كنت الآن في طريق عودتي مرة أخرى للساحل بوعي تام لما سيحدث.

استمر التوتر بيني وبين رفاقي الذي نشأ بسبب حماقة دابي طوال اليوم في الديجاني، وظل بيننا خلال عبور الدهناء. ولم يكن مترك بالطبع يخضع لحظر استيائي، ولكنه فيما يبدو قد نقد كل اهتمام بمجريات السير بانحراف شديد في منطقة أصابته بالملل؛ ذلك لأنه بالطبع كان غريباً عنها رغم أنه اجتازها مراراً من قبل. وعلاوة على ذلك، فهو ما يزال يعاني من آثار حيلة لعبتها عليه في عنيزة يوم وصول أخبار انتصار ابن سعود أمام حائل. لقد كنت طبعاً أريد أن أنقل الأخبار إلى بغداد بأقل قدر من التأخير، وبعدما انتهيت من إعداد خطاباتي أرسلت إلى مترك. وقلت له: "ترى، هذه الخطابات ذات أهمية قصوى. اركب الآن ولا تقصر في أن تكون بالكويت خلال ستة أيام". ولم أقل له إن من بين الخطابات يوجد طلبٌ للوكيل السياسي في الكويت أن يدفع لحامله مائة دولار بشرط أن يخضع ذلك لوصوله خلال سبعة أيام. وقد أظهر حماسة كبرى وأحضر ذلوله عند الباب وشد عليها تجهيزات الركوب وأخذ الخطابات في يده ثم تذكر فجأة أنه ليس معه لا طعام ولا قربة ماء. وقدّم مضيفي كليهما له في الحال، ثم اعترف أن حاجته كانت للمال. عندئذ نفد صبري وقلت له إنه ليس بحاجة للقلق من ذلك بعد الآن، وبعد يومين، ليس مباشرة مني، سمع بما كتبته في الخطاب. ومنذ ذلك الحين لم يسامح نفسه ولا عفا عني؛ لأنه يريد المال من أجل ملذاته وعبثه في الكويت، وكان سينال أكثر مما يكفي لمتعته لو كان أقل أنانية.

غادرت حملتنا[1] المخيم قبلنا بنصف ساعة، واستغرقنا ساعة ونصف حتى لحقنا بها. من تلك النقطة أبطأنا سرعة السير بشكل يضيق الصدر إلى ميلين

(١) قافلة العفش. (فيلبي).

ونصف في الساعة؛ لأنه من الآن فصاعداً سيكون من الخطر أن نتفرق عن بعضنا خشية الاصطدام بالجماعات المغيرة في أي مكان بيننا وبين خط المراوي المعروف باسم طوال آل مطير[١]. بعد ربع ساعة من انطلاقنا تسلقنا مرتفعاً بسيطاً في السهل الصخري القاحل لنرى الخط الطويل للدهناء أمامنا في ضباب الصباح، وصار مستواه يتقطع بقمم رملية كبيرة، عددها اثنتان وثلاثون قمة في مدى رؤيتنا. ثم سرنا على طول الدروب الواضحة فوق السهل المتموج شمال العرمة المكسو بالعرفج، وواصلنا السير هكذا حتى عبرنا جبلاً رملياً نائياً يدعى عريق مجده، وبعده اقتربنا من طريق بيحس القادم من القيعيه في قناة لغف قبل الجزء الأول من الدهناء نفسها. هنا توقفنا للفطور قبل أن نبدأ العبور المرهق المعروف للرمال.

كنت أركب بمفردي سائراً أمام الجماعة عندما صادفت راكباً وحيداً، حشاشاً أو جامع حشائش ذاهباً لجمع حشيش النوصى في الدهناء لإبله بديجاني. عندما اقتربت منه لاحظت الغترة البيضاء للإخوان على رأسه، ولكن ألقيت عليه التحية مع ذلك ورد تحيتي بحرارة ومودة[٢]. وسرنا لمسافة راكبين معاً نتحدث عن المنطقة. ولما رأى أنني أعلم شيئاً عنها تعجب قائلاً: "ما أنت بهيّن؟، أي لست رفيقاً سيئاً، ثم أردف أن مثل هذا المديح يستحق بعض التقدير العملي، ورددت على ذلك بأن نقودي كانت متخلفة عني مع الحملة. وقد قبل هذا الرفض بإذعان ولم يكرر طلبه علانية عندما ـ في أثناء مروره ـ ناديته لينضم إلينا على الفطور، هذه الدعوة قبلها بلا شكليات ومراسم، وعندما انتهى من طعامه نهض وركب منصرفاً دون كلمة شكر. إنه

(١) تشمل الصفا، والقرعاء، والحبة وغيرها. (فيلبي). كانت الطرق وحملات الحج والتجارة قديماً تتعرض لاعتداءات من اللصوص وقطاعي الطرق، وغالباً كانوا من أبناء القبائل التي تقطن قريبة من الطرق التجارية التي يرتادها الحجاج والتجار والمارة على حد سواء. (ابن جريس).

(٢) كان الإخوان في عهد الملك عبدالعزيز يميزون أنفسهم بألبسة معينة، من تلك الألبسة عمامة بيضاء يضعها الواحد منهم على رأسه، ويضع عليها أحياناً عقالاً من القماش. (ابن جريس).

سوف يقضي الليلة في الدهناء ويعود في الغد لقومه. وإذا قابلني مرة أخرى فلن يُلقي عليّ التحية على الأرجح ولربما لن يظهر أي إشارة على معرفته إياي.

إن أقصى جزء غربي من الدهناء يسمى جضمة وربما يبلغ اتساعه ميلاً، وفيه واجهنا قطيعاً من الأغنام، سوداء بلا استثناء، تحت مسؤولية صبي صغير ومعه الحمار المعتاد حاملاً قربة ماء مملوءة. تشرب الأغنام في الديجاني مساءً وتمشي في برد الليل حتى الدهناء لترعى، حيث تظل هناك طول النهار، وتمشي مرة أخرى لتصل عند الماء في الفجر التالي، وهكذا إلى الأبد، حياة قاسية رتيبة للغنم والراعي معاً. وبينما الأغنام تتجول في المرعى لاحظت عدداً من الطيور الصغيرة صدورها صفراء تتحرك في صحبتها بمعدل طائر واحد مع كل خروف ليستفيد من ظله البارد.

بين جضمة والقسم التالي أرض الأجل يقع منخفض من الرمل الصلب فيه نتوءات من الصخر، والتي سماها عياض الذي تجول في الماضي بهذه المنطقة خلال خدمة بعض شيوخ مطير، لي باسم خب الرضم على الرغم من أن غازي دليلي الأسلمي في رحلة ابريل قد سماها خب الرضم وهو اسم نقله عائض إلى منخفض لاحق. ومما لا ريب فيه فروق قبلية في أسماء مناطق شديدة التشابه بصورة مملة وبدون معالم واضحة تماماً، ولكن ربما في مثل هذه الحالات ينبغي للمرء في هذه المنطقة أن يتبع عادة مطير[1]؛ لأنها بلا شك أرضهم. وقد مرت علينا جماعة صغيرة من تلك القبيلة هنا قادمة من القرعاء ثلاثة رجال وامرأة واحدة ومعهم أربعة من العير، أحدها يحمل حمولة من حشائش النصي لفرس رائعة المنظر تمشي بخطى رشيقة مع الجماعة وهي طليقة.

(١) للمزيد عن قبيلة مطير تاريخها، وفروعها، ومواقعها، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٣٦-١٤٢. (ابن جريس).

إن أرض الأجل، هضبة متموجة بصورة طفيفة من الرمل وبها شجيرات الأضر والأرطي بصفتهما أهم النباتات هنا، ويبلغ عرضها نصف ميل، وتنفصل عن الجزء الثالث بخب ضيق، وهو منخفض مماثل يعزل الخب عن الجزء الرابع. لا الخبوب ولا الأجزاء قد ذكرت أسماؤها لي في هذه المرة، ولكن الجزء الرابع كان الأول من سلسلة جبال متماثلة في الدهناء لها ثماني قمم رملية كبرى متراصة على طولها بمسافات غير منتظمة فاصلة بينها، بينما ظهرت مجموعة من تسع من مثل هذه القمم على بُعد نحو عشرة أميال نحو الجنوب من الشرق. وكان مسارنا يتجه نحو الشمال الشرقي. وقد مرّ علينا اثنان من جامعي الحشائش في طريقهما إلى الديجاني، وكانت إبلهم محملة بأحمال عالية من حشيش النصي، الذي ينمو بغزارة شديدة في البقاع الوسطى. والآن كنا نمر بين قمتين رمليتين وننزل على منحدر من الرمل العميق في منخفض واسع تتناثر فيه الإبل التي اندفعت عليها جماعتنا اندفاعاً وحشياً متفرقاً لتتمتع بحليب الضروع الممتلئة التي لا يمكن أن يقاومها أي عربي.

تتلألأ حشائش النصي طيبة المذاق في الشمس، وقد أكدت فتاة صغيرة، يبدو أنها الحارسة الوحيدة على القطيع، اسم خب الرضم الذي ذكره عايض لهذا المنخفض، الذي ذكر لي سابقاً باسم خب النوم. يمتد خط هذا الخب والجبال الرملية على كلا الجانبين من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، كما يمتد جبل رملي ثانوي بدءاً من على بعد ميل واحد نحو الشمال منا نازلاً في منخفض إلى أبعد ما يستطيع المرء أن يرى مع قمة وحيدة ومشهورة تدعى نقع المطوع، راكبة فوق ظهره على بُعد نصف ميل. وقد استغرق عبورنا للمنخفض ساعة وربع الساعة، وثلاثة أرباع الساعة لعبور الجزء الخامس، وهو بقعة من التلال الرملية، ونصف ساعة أخرى للتغلب على المنخفض التالي، خب النوم كما قال عائض، والدرب فيه واضح المعالم بخمسة عشر مساراً ملتوياً.

كانت نصف ساعة كافية لعبور الجزء السادس، وهو أعلى جزء من الدهناء، حيث كان السير صعباً نسبياً. ومن قمته نظرنا إلى الخلف على الخط العظيم للقمم، العمود الفقري المتشابك في القفر الرملي، الأبيض الفضي الضبابي تحت وهج شمس ما بعد الظهر. وهناك خب ضيق يفصل هذا الجزء عن الجزء السابق والأخير اسمه جهام على وجه التحديد، بحرٌ متدرج منخفض من أمواج الرمل اكتشفت في وسطه زوجاً من الغزلان البيض، بينما كان مروّج قد جرّب بلا نجاح بندقيته على نسرٍ قابع فوق قمة جبل. وفوق سطح هذه البقعة مشينا ساعة حتى أبعد جبل فيها، حيث نصبنا خيامنا في الرمل المطل على سهل الجندلية الواسع وخلفه الخط القرنفلي المنخفض لعريق دحل. إن المشي القاسي الذي تبعته وجبة رديئة لا تزال تتكون من الأرز ولحم الغزال المجفف، قد أسلمنا إلى النوم العميق على الرمل الناعم تحت لحاف السماء؛ لأننا لم ننصب الخيام. رقدت الإبل حولنا تجتر طعامها بصوت منتظم من صرير أسنانها، ورفاقي جلسوا يثرثرون أو يغطون في نوم عميق، بينما رحت أكتب مذكراتي اليومية في ضوء المصباح، وفي أثناء تلك هوجمت بجيش من الخنافس والحشرات الأخرى. ولقد ثبت أن طريق بيحس كان يسيراً بصورة كافية وكذب السمعة الشريرة للدهناء، التي تشكل للرحالة هدنة من العراء القاتل في القفر الصخري وللرعاة جنة حقيقية من الرعي الخصيب.

لقد استغرقنا ساعتين تقريباً في عبور سهل الجندلية وجبل إمار الرملي من ورائه (امتداد جنوبي من عريق دحول على ما يبدو، خاصة وأنه قيل إن الأخير لا يمتد حتى هذه المسافة الطويلة). ثم وطأنا صحراء الصمان الصلبة، حيث الدرب، ينغرس بعمق تحت سطح الأرض، ويمر أولاً فوق سهل منبسط ثم عبر منطقة وعرة نسبياً وسط الامتداد المتناهي المعروف من الجبال والمنخفضات المتراصة في دوائر وشبه دوائر، في الصمان الحقيقية.

وواصلنا السير ببطء ورتابة، ومتعت نفسي باختبار رفاقي ضد بطونهم. فقد انطلقنا عند الساعة الخامسة والنصف صباحاً بلا طعام، وطلعت الشمس أعلى

وأعلى وما من دليل أبداً على الفطور، وبدأت العزائم تخور والأرواح تيأس بشكل واضح. ومع ذلك لم يتفوه أحد بكلمة. وبعد ذلك حاولوا أن يجذبوا انتباهي، ولكنني تفاديتهم حتى انهار عائض في النهاية وانتحب بصورة مثيرة للشفقة عندي قائلاً: "أنا جويع، أي أنني جائع قليلاً". فأجبته : "نعم، إنكم كلكم مستعدون بصورة كافية للتفكير في بطونكم وبطون إبلكم، ولكن ماذا عن جوع عقلي للمعرفة؟ وتتركني أموت جوعاً". على أنني شخصياً لم أكن غير مستعد للطعام، وتوقفنا بجوار تلين توأمين منخفضين يسميان جنيحاً. وقبلهما بعدة أميال مررنا عند مسافة ما إلى الشمال من دحل وهي بركة صخرية، جافة في هذا الفصل، وقيل إن عمقها ثلاثون قدماً. هذه القياسات أخذت بواسطة حبل أنزلناه في البئر وسحبناه مرة أخرى بالجمل، ثم تقاس المسافة التي قطعها الجمل بالخطوة تقريباً. توجد قرب دربنا قناة تسمى رجم عقاب على رابية منخفضة، وقبل أن نصل إلى جنيح كنا قد مررنا عبر منخفض به مجموعة من شجيرات السدر.

عند الساعة العاشرة والنصف استأنفنا سيرنا وواصلنا حتى الساعة الرابعة والنصف مع توقف نصف ساعة لصلاة العصر. وكان هناك ثلاثة منخفضات هي أم عدن وجو ابن رشدان المسمى على اسم شيخ مطير من فخذ جبلان وجو مرزوق المميز بركامين من الحجارة. وقد أضفت هذه المنخفضات تنوعاً كسر رتابة السير، وثارت لمحات خاطفة من المتعة والمزاح على محاولة راشد الرشيدي غير الناجحة في قتل أفعى كانت تتمدد على قمة شجيرة عرفج لتتمتع بالهواء. وربما كان طولها ثلاثين بوصة أو أكثر وسمكها نصف بوصة وذات رأس مدبب، وقد هربت مختفية بعيداً في حفرة.

بعد هذا مباشرة وقعت حادثة هزت مشاعرنا للخروج من بلادتنا ونعاسنا المتزايد. فعندما تسلقنا قمة جبل لاحظنا رؤوس جماعة تقترب منا نازلة في منخفض أمامنا دون أن ترانا. كنا في موقع أفضل ووقفنا ننتظر ما سيحدث من تطورات، وكل رجل منا يفك بندقيته من الشداد. وهناك نصف ميل يفصلنا عنهم

عندما أصبحوا، بعدما صعدوا الجبل، ملتصقين في الأرض بسبب المفاجأة. وللحظة عصيبة وقفنا نراقب بعضنا البعض. كنا عشرة وهم سبعة على ما يبدو؛ ولذلك هرول دابي وراشد متقدمين للتفاوض، بينما من جانبهم ركب رجل الحصان وتقدم في خبب. عند مئة ياردة بينهما وقف الطرفان وصار تبادل للاستفسارات والشرح بصوت عال. ثم اقتربوا من بعضهم وتبادلوا كلمات التحية وعند رؤية ذلك تقدمت كلتا الجماعتين للتآخي. لقد كانوا قادمين من آبار قرية جنوب القرعاء وهم قاصدون القصيم لمقابلة ابن سعود. وأحدهم يُدعى ابن حلف شيخ على ما أظن من ظفير، وآخر يقال له ابن منديل من بني خالد على صلة قرابة مع العاهل الوهابي بالمصاهرة. لم يكن لديهم أخبار ليزودونا بها، وسألني ابن حلف، وهو رجل في منتصف العمر ذو مظهر حسن، إن كنت أنا الرجل الإنجليزي الذي اشترك في الحملة العسكرية مع ابن سعود. فقال: "أنت اللي غزيت على حايل؟، أي هل أنت الذي ذهب للهجوم على حائل؟ ثم أضاف لراشد عند مرورنا قائلاً: "والله! بدوي[1]!!".

قبل هذا الحادث بقليل كنا قد عبرنا الدورب، التي عمرها يومان عندما سلكها الثلاثون مهاجماً من العجمان الذين استولوا على الإبل من مبايض وهم متجهون على ما يبدو نحو حفر الباطن.

على بعد حوالي خمسة أميال إلى الشمال يقع تل مخروطي يسمى أميثة ومن المعالم الأرضية الأخرى ركام رجم الدب. وخلاف ذلك كان المشهد خالياً من المعالم الأرضية حيث نصبنا خيامنا في منخفض ضحل بعيداً عن الطريق لنتفادى المواجهات العرضية. صارت عليه المياه التي معنا قليلة، كما أن مخزوننا من لحم الغزال المجفف قد انخفض إلى نسب لا تذكر، ووضعت الحصة كلها بصورة لافتة

(١) فعلاً كان فيلبي قد لبس زي البدو، وحرص أن يلبس الألبسة المحلية أينما ذهب حتى لا يكون نكرة بين الناس، ثم حرصه للوصول إلى ما يتطلع إليه من اندماج مع الناس ومعرفة معارفهم وثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم المختلفة. وهذا يتضح في دراساته وكتبه التي وصلتنا عن أجزاء عديدة في الجزيرة العربية. (ابن جريس).

للأنظار في جانبي من الطبق. وقد نثرتها في الطبق كله بشكل أكثر عدلاً، وتعشيت أنا شخصياً على الأرز وحده المخلوط بالبصل الكثير، ومرة أخرى نمنا في العراء، والحشرات لم تكن كثيرة جداً مثلما هي في الدهناء، على الرغم مما بدا من وجود ذباب كثير، وفي اليوم التالي كانت تطير حولنا بأعداد كبيرة.

لقد ركبنا طول النهار كله بصورة مرهقة في الصمان، والاختلاف الوحيد من الرتابة العامة وجود منخفض أشد عمقاً من غيره، أو أن يكون اسمه مميزاً. وتهادت إبلنا بصورة يُرثى لها، وخلال فترة ما بعد الظهر صمتت من شدة الظمأ، ومع ذلك يبدو أنها تأكل عن طيب خاطر من تلك الشجيرات التي تعثر عليها، فلربما تستمد بعض السوائل منها. تناولنا فطورنا من توليفة من الفتات، الأرز، ولحم الغزال المجفف، والبصل والخبز الردي، والماء في قربنا تحوّل إلى اللون البني الداكن مليئاً بالشوائب لكنه بارد. ولم أشرب إلا جرعتين خلال النهار من أجل الاقتصاد، على الرغم من أن المزيد سيكون مبهجاً وساراً؛ لأن الرياح، على الرغم من عدم حرارتها، إلا أنها كانت جافة، وحمصت شفاه المرء تحميصاً. وقد لف العرب أغطية رؤوسهم على أفواههم، معتقدين أن هذا يمنع العطش، وربما يكون الأمر كذلك إذا اعتاد المرء على ذلك.

بعد ساعة من السير لحقنا بالحملة في منخفض بزم، ثم امتد مسارنا فوق منطقة متموجة بها أحواض صغيرة متناثرة تسمى صبغاً، وبعدها يقع جبل في قمته ركام من الحجارة كنصب تذكاري يسمى رجم الرجد. وهناك منخفض آخر هو فيضة الحمل يمثل انتقالاً واضحاً إلى قسم الصلب من الصمان، وهو نوع من السهول الواسعة الخالية من الأشجار النازلة برفق من جبل إلى جبل مواز له. ويوجد منخفض أم سدير[1]، وفيضة الصلبي حيث رأينا زوجاً من النسور تتظف موقعاً لمخيم قديم،

(١) ربما سمي هذا المنخفض بهذا الاسم لتواجد شجر السدر بكثرة فيه، وإذا كان ما ذهبنا إليه صحيحاً فالمفروض أن يسمى منخفض (أم سدر). (ابن جريس).

ومنخفضات أخرى متكررة بها أشجار سدر تقل أو تكثر كلها كانت مراحل في الطريق إلى الفطور. كانت أشجار السدر بصورة جزئية في فترة الازهار، وبدأت تكوّن ثمارها غير الجذابة، ثم صعدنا تلاً رتيباً خالياً من المعالم الواضحة أدى بنا إلى جبل عال يمتد شمال غرب مع شرق جنوب عبر مسارنا، وبه نصب تذكاري عبارة عن كوم من الحجارة على قمته يسمى رجم الشيوخ تخليداً لذكرى مناسبة قام فيها ابن سعود، الذي كان في معيته مترك، "يأخذ" مطير المحتشدة في منخفض الخمة الواسع، وقتل ما لا يقل عن مئتين وخمسة وأربعين منهم.

إن الدرب إلى آبار حبة ينحرف إلى اليمين في هذا المنخفض العظيم، الذي يبلغ طوله ثلاثة أميال وعرضه نصف ميل مع أيكة صغيرة من السدر في وسطه. وقد واصلنا السير حيث صعدنا إلى الصحراء بعده مارين عبر سلسلة من المنخفضات تشمل منخفض الجنينة حتى جبل عليه نصب تذكاري يسمى رجم المجلس، وبعده قطعنا هضبة ظهرات الظبي الوعرة. بعد ذلك تظهر منطقة مليئة بالحصى، متموجة برفق، تسمى الدبدبة فيها وجدنا جملاً ضالاً استولينا عليه وهو في منتهى العطش. توقفنا للصلاة، ثم مزيداً من السير على هضبة وعرة تسمى حزيمة سدوى مكونة من الصخر الجيري، وبعدها تجاوزنا منخفض مجهرة الذي أدى بنا إلى قمة منحدر رقيق فيه تقع رأس شعيب سديرة وهو واد عرضه نصف ميل يمتد شمالاً على طول الجرف الشرقي من الجبل، بارتفاع (٣٠) قدماً تقريباً. والضفة اليمنى من الشعيب عبارة عن تل منخفض، وقرب رأسه يوجد خزانان محفوران في الصخر يسميان ملزم (ملازم) لحجز الماء وتخزينها وقت الفيضان. ونصبنا في وسط أيكة من السدر.

لم نر أثراً طول النهار كله لإنسان، ولكن الشعيب يعج بالغنم ورعاتها، واستطعنا أن ننال ماءً كافياً لتعويض النقص في مخزوننا. واشترينا أيضاً خروفاً بخمسة دولارات فقط، بينما دفعنا عشرة في الديجاني لمثله، وتناولنا عشاءً طيباً من لحم الضأن والأرز والذي ساعدنا فيه عدد من الرعاة.

خلال النهار، وفي أثناء السفر مع الحملة، دخلت في نقاش مع واحد من الخدم الذي بدت ملامحه غير العربية أو بالأحرى غير النجدية التي أثارت فضولي. وفي الحقيقة رغم أنه يمني، ويحتمل أن تجري في عروقه دماء أخرى، فقد كان فتى قصيراً قوياً بوجه مستدير ريان ممتلئاً جميلاً، يقال له محمد، ويُلقّب بـ (البيه)[1] بسبب مظهره الأجنبي. لقد كان مواطناً من صنعاء وابن صاحب دكان أراد له أن يعمل في خدمة قوة الدرك الضبطية التركية، ولكن لأن لديه أفكار أخرى لمستقبله فقد هرب مستخفياً من بلده مع قافلة قهوة وصلت خلال (٤٥) يوماً عن طريق نجران إلى السليل، حيث قابلني، وبعد ذلك سار شمالاً لينضم إلى أهل بيت ابن سعود. وقام خزيّم الأسلمي يقتل أفعى أخرى خلال النهار، كما شاهدنا عدداً من الحباري منها واحدة قد صيدت بطلقة ثانية من بندقية بعدما جرحتها الأولى.

إن الألوان "الواقية" في هذا الدجاج الرومي الكبير بالصحراء لشديدة الوضوح والتميز. فعلى الأرض، سواء كان ثابتاً أو متحركاً، لا يمكن أن يُرى تقريباً على خلفية سطح الصحراء الرمادي البني، ولا يمكن أن يظهر بسهولة إلا عندما يطير في السماء. ومع طيرانه الكسول فهو يبتعد عن صائده بسرعة مذهلة. وحيوانات الضب أو السحالي ذات الذيل البوقي التي تؤكل قد شوهدت أيضاً بكثرة، ولكننا لم نقبض على أي منها.

أدى بنا المسير لمسافة قصيرة نحو ثمانية أميال نزولاً على طول شعيب سديرة إلى القرعار في الصباح التالي. والوادي بين الجبال يتسع هنا ويضيق هناك، ويمتد في البداية شمالاً ثم يتحول إلى الشمال الشرقي. وفي بطن الوادي كانت النباتات المتنوعة غزيرة وكثيرة، وكلما اقتربنا من الآبار كان صف طويل من الإبل يمر

(١) البيه: كلمة تركية يقصد بها الباشا، وما زلنا نسمع الأخوة المصريين يستخدمونها إلى اليوم، حتى أنها أصبحت كلمة دارجة على ألسنتهم، بل انتشرت في كثير من البلدان العربية الأخرى. (ابن جريس).

بمحاذاتنا وهو يقاوم صعود الوادي في الطريق إلى الصمان المرتفعة خلفنا للرعي. وخلال الجفاف الطويل في الصيف تظل على مقربة من منطقة آبار طوال مطير، وتتحرك جيئة وذهاباً بين المراوي المختلفة، ولكنها الآن سوف تبقى في الصحراء الخارجية طول الشتاء كله، ولا تأتي للماء إلا أحياناً إذا كانت الأمطار غير كافية. ويمشي الرعاة المختصون مع الإبل لرعايتها. هذا الموكب البطيء المتثاقل من الحيوانات التي ضاقت ذرعاً بالوجود بدا لي مثالاً على الحياة العربية، كفاحٌ شرسٌ لمملكة الحيوانات ضد شبحي الجوع والعطش.

في القرعاء بئران، كل منهما بعمق خمس وثلاثين قامة، جاثمتان فيما يبدو من جميع الجهات على قمة هرم ذي رأس منبسط والذي تشع منحدراته الخارجة والنازلة بمسارات الإبل التي أثرت فيها أخفاف حيوانات السحب وهي تصعد وتنزل لسحب الدلو الجلدي وإعادته. هذه المسارات امتدت مثل النجم من المركز، فهناك ثمانية مسارات عند كل بئر، تسمح لثمانية من الإبل أن تعمل في الوقت نفسه. وكل جماعة توفر ما يخصها من أدوات مطلوبة تشمل الحبل والدلو والبكرة؛ لأن الآبار ليس عليها تجهيزات علوية دائمة.

يبلغ قطر المنخفض الذي تقع فيه البئر نصف ميل تقريباً، وهو شبه دائري، محيط به تلال منخفضة وهضاب صغيرة مدورة، وحوض من الرمل الخفيف تنتشر فيه الصخور والحصباء، ومليء بخيام البدو. وقد أحصيت منها مائة وسبعاً وستين خيمة، كبيرة وصغيرة، تخص قبائل مختلفة منها مطير بالطبع وبعض الصلبة وجماعة من شمر عبده من أتباع ابن جبرين[1]. وقد كان الذباب مروعاً، كما تغيّر لون الماء بصورة سيئة، وبخلاف ذلك فهو لم يكن غير مستساغ.

(١) لمزيد من التفصيلات عن قبائل مطير وشمر وفروعها ومواطنها، انظر: الحقل، كنز، ص ١٣٦-١٤٢. (ابن جريس).

إن شعيب سديرة في الحقيقة يُفرّغ مائه ليس في منخفض القرعاء كما قد يظن المرء من وجود الماء فيه، ولكن في منخفض غير ذي ماء أو فيه آبار قليلة على بُعد ميل أو نحوه جهة الشمال. وفي الشمال يقع حوض الصفاء، ومعه ثلاث آبار لا يزيد عمق الواحدة عن اثنتين وعشرين قامة، وعلامته الطبيعية حبل طويل منخفض كما يُرى من هنا، ويغذيه شعيب عشيري، وإلى الجنوب تقع حبا (هبه) وفيها بئران عمق الواحدة (٣٥) قامة، بينما في جهة الشرق على بُعد ثمانية أو تسعة أميال تقع القرية العليا والقرية السفلى وهما مجموعتان من آبار كثيرة بها ماء قريب من السطح على عمق قامتين أو ثلاث، وجنوب الأخيرة على المسافة نفسها تقع أبواب التي يتراوح عمقها بين أربع قامات في الصيف إلى مستوى سطح الأرض تقريباً في موسم الفيضان. وعلى مسافة بعيدة لجهة الجنوب أيضاً يوجد أنجابية الذي تكتمل به مجموعة المراوي المدرجة بصورة عامة تحت اسم منطقة طوال مطير، ونظيرتها الشمالية تسمى طوال ظفير بعد الباطن.

تتكون التربة والروابي المحيطة من الحجر الجيري الجبسي، التي يبني فيها البدو أفران الإسمنت البدائية، حيث تحفر حفرة في الأرض، وتملأ بوقود الصحراء الذي تشعل فيه النار، ويترك ليحترق لمدة أربع وعشرين ساعة، بعدها يؤخذ الحجر الجيري أو رماد الجبسي لتشييد قنوات الري حوال الآبار. والصلبة ليس لديهم غير الماعز. وإبل مطير كانت في معظمها ذات لون أسود أو بني داكن، بينما إبل شمر بيضاء وبنية. هذه الجماعات، بما فيها تلك التي ذهبت للمراعي[1] في الصباح، ظلت على هذه الآبار لشهرين تامين. وكان معشر جبرين من الإخوان، على الرغم من أنهم لم يستقروا بعد ليحيوا حياة القرى، ولم يبد عليهم بأي شكل من الأشكال أنهم مستاؤون من تطفلنا. وزعيمهم يُدعى مقبلاً.

(١) نداء = يذهب إلى المرعى، ومندى = أرض المرعى.. (فيلبي).

تمثل مطير ثلاثة بطون من جماعة علوى وتضم البرصة تحت حكم منيف السر، وشقير تحت حكيم بن هزاع، وجزء صغير من الدوشان ومعظمهم تحت إمارة عبدالعزيز الابن الشاب لفيصل الدويش، وتقيم في الصفاء مع فخذ الجبلان بزعامة ابن شبلان. وكان بعض من مجموعة بريح تقيم في القريتين[١].

من الطبيعي بصورة عامة أن يندفع الصلبة الذين ثار اهتمامهم بوصولنا في أعداد هائلة رجالاً ونساءً محتشدين حول مخيمنا طول النهار بحثاً عن الصدقات والتوافه غير الجديرة بالاعتبار. فالبقايا الهزيلة من فطورنا، حيث لم يبق إلا العظام الجرداء وقليل من الأرز، قد جمعت لتقدم إلى جماعة تجلس القرفصاء من النساء، اللائي التهمنه كله مع أطفالهن بنهم شديد إما من الطبق أو من القدر الذي طبخنا فيه الطعام، بينما استخدم بعضهن طية من ثيابهن القذرة كوعاء مرحلي أشد اتساعاً من أفواههن. وكانت العظام قد قضمت ولحست نظيفة. وحمل طفل صغير رأس الذبيحة الفارغة ليبحث فيها عن البقايا الكامنة من المخ والفضلات. ومرة أخرى في العصر، عندما ذبحت شاة للعشاء، تجمعوا حولنا ليحملوا الأمعاء والأجزاء غير المرغوبة. وفي الوقت نفسه اجتمعت قلة من النساء وزمرة كبيرة من الأطفال حول خيمتي يجمعون كرات صغيرة من روث الإبل[٢] وقد أتاحوا لي فرصة رائعة لمراقبتهم من خلال فتحة الخيمة.

كان الأطفال لا سيما البنات الصغار، ذوات وسامة فذة وجمال أكيد مشوب برزانة ووقار يناسب أعمارهن. لقد كن يرتدين الثوب النسائي الأحمر المعتاد، الذي يكشف عندما يتحركن عن أجسام نحيلة رائعة بداخله، وأغطية الوجه أيضاً من اللون الأسود، ولكنها مهملة لدرجة أن وجوههن كانت مكشوفة تماماً. والصبية الصغار، المختونون بطريقة المسلمين، يرتدون أسمالاً لا يريدها أحد. وبدت النساء

(١) للمزيد عن قبيلة مطير، أنسابها، فروعها مواطنها، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٣٦-١٤٢. (ابن جريس).
(٢) روث الإبل: يسمى أيضاً (جلّة) أو (الجلّة). (ابن جريس).

ذوات أجسام طيبة وجمال على الرغم من التعب البادي من قسوة العيش. وملامحهن تدل على وجود نوعين مميزين تمييزاً تاماً، أحدهما من ملامح الغجر المعتادة ومن الهيئة السامية، والآخر ملمح ريان ممتلئ عريض ومنغولي. وكنّ يرتدين الخمار، ولكن دون أي محاولة لإبقائه حيثما ينبغي له، وعندما اعتدن على صحبتنا تبادلن مزاحاً خفيف الظل مع رجالنا. وكان رشيد قد ظهر في معدنه الحقيقي وهو يمزح بنكات فاحشة موارية باستمتاع شديد. وفي المساء تجمعن حولنا مثل النسور يراقبن انتهاء الطعام، وبعده انقضضن في قتال حار على الفضلات، فكل سيدة أو آنسة تندفع بعيداً بما استحوذت عليه مثل كلب لتزدرده في هدوء وسلام. وفي معظم الأحيان تتبعها صديقة لها أقل نجاحاً منها.

أثناء النهار ضايقتنا الجهود المثابرة للمطيري الأبله، العاري تماماً إلا من إزار صغير، للدخول في مخيمنا. وقد عومل بقليل احترام، وطرده بعيداً في كل مرة رشيد أو واحد من الآخرين وهو يرميه بالحجارة وبأقذع السباب، له ولوالديه. على أنه جدد محاولته تحت جنح الظلام، من أجل السلام والهدوء، قُيّد بحبال وترك ينام بيننا حتى الصباح وهو غير قادر على إزعاجنا. وقد رضي بهذه المعاملة دون كلمة احتجاج؛ لأن امرأة في يوم أمس كان قد ضايقها، قد جرحت فكه بحجر. وقد ذكرتنا معاملته هذه بحادث بسيط وقع أثناء السير صباحاً عندما اندفع كلب نحو مسارنا وتظاهر واحد من جماعتنا دوسري يدعى محمداً، كما لو كان يفك بندقيته من الرباط ليطلقها. وقد اعترضت قائلاً: "هل ستأكله؟". فأجاب بوجه بدأ عليه الخزي "أطال الله عمرك! لا ولكنها تأكل العرب" ربما لأنها تأخذ شيئاً من مؤنتهم الهزيلة.

لقد قطعت إبلنا سبعاً وثمانين ساعة منذ آخر شرب لها حيث أخذت اليوم كله تشرب وترتاح من عنائها. وفي الوقت نفسه اتخذت ترتيبات مع صلبي، اسمه عيد، ليأخذ خطابات قبلنا إلى الكويت، ورتبت أيضاً مع واحد من قبيلته اسمه سويعد[1]،

(١) تصغير سعد. (فيلبي).

ليعمل دليلاً لنا فيما تبقى من الرحلة. لم يكن ذا مظهر خلاب، وخلق انطباعاً سيئاً بإصراره على أن يكون أجره محدداً قبل بدء الرحلة. ربما تعرض للخسارة في هذه الصفقة، التي تم الاتفاق فيها على عشرين دولاراً، مبلغ ضخم بالنسبة له، ولكنه ربما كان أقل مما قد يناله لو ترك الأمر لي. وفي الحقيقة أثبت أنه رفيق مقبول دون أي كفاءة خاصة تمكنه من أن يكون دليلاً.

وعلى مدى خمسة وعشرين ميلاً مشينا في قفرٍ كان لعنة الخراب والدمار، وعيوننا تترصد تماماً لأي عدو في الأفق الممتد بعيداً مثل البحر. على أنه لم يظهر أي عدو ولا أي أثر على وجود حياة بشرية في ذلك اليوم بعدما تركنا خيام القرعاء وراء ظهرنا. كان سويعد يسليني بثرثرته الغريبة والمضحكة، وقد أثار وجوده في رفاقي الآخرين رغبات التحدث والكلام، الذي بدأ على هيئة نقد وتفنيد لمعلوماته الجغرافية التي قدمها لنا. من هذا الغموض العام جمعت معاً في مذكراتي النتائج التي حصلت عليها من أدلة متناقضة. وكان التحسن العام في الجو الاجتماعي بالجماعة قد بورك بتحسن ملحوظ في الأحوال الجوية فوراً بعد وصولنا المخيم. فقد هبط علينا وابل خفيف من المطر من غيمة كبيرة كثيفة برزت فجأة من سماء صافية في الشمال الغربي، وذلك أول مطر في موسم الوسم[1]، وأول مطر أراه منذ السادس من مايو. ولأكثر من ستة أشهر كانت الصحاري جافة عطشى. وتحدثنا بتفاؤل عن العشب الذي سوف يصل بعد ذلك إلى الأحزمة المربوطة على متون الإبل.

تكلم سويعد عن الصيد وعن أقاربه. وسألته: "من أين جئت؟". فنظر إليّ بأناة مع ابتسامة غريبة على محياه الغجري الصغير، فقد كانت ملامحه داكنة بمسحة من النحاس اللامع، فقال: "يقولون أننا ننبع منكم، من الأنجريز"[2]. وأسعدته

(١) الوسم: يطلق عليه أيضاً كلمة (الوسمي)، وللمزيد عن أيام الأمطار وعلاقتها بالنجوم والسحب والكواكب، انظر: ابن قتيبة الدينوري. كتاب الأنواء في مواسم العرب (الهند: حيدر أباد، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) ص ١٤ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) الانجريزي: يقصد بذلك الإنجليزي. (ابن جريس).

باعترافي أن الإشاعة كانت صحيحة. فقلت: "إننا فعلاً أولاد عم". في الماضي لم يكونوا يهتمون إلا قليلاً بعادات الإسلام في الصحراء، ولكن الآن يوجد التزام أكبر خوفاً من الإخوان حيث يؤدون الصلاة ويمارسون الختان[١].

خرجنا من منخفض القرعاء عن طريق واد يتجه شمال شرق بين جبلين منخفضين ريش النظيم على اليمين امتداداً للتلال على الجهة الجنوبية من الحوض، وبريقة على اليسار بدءاً من رابية دامغ على بُعد ربع ميل شمال البئر الأوسط. تشتت الوادي من عرض ميلين وراء تل صغير يسمى مزبوراً، وظهر جبل منيصفة الصفاء المنخفض فوق الضفة الشمالية على بُعد خمسة أميال تقريباً، ويعد علامة منتصف الطريق بين المرويين. وبعد شعيب صغير ينتهي في منخفض معشوشب بالشجيرات على يسارنا صعدنا إلى سهل رملي، فيه انطلق طائر سمان من شجيرات العرفج والأندة. ووصف سويعد ثعباناً ساماً طوله خمس عشرة بوصة، وبه خطوط رمادية على خلفية قشدية اللون وثلاثة خطوط رمادية على رأسه. لا تزال تنسب هذه المنطقة إلى الصمان وتسمى مشالف.

أدت مجموعة من المنخفضات التي تشبه الأحواض إلى سلسلة من القنوات تعرف معاً باسم شعيطات أولها شعيط رويان المتجهة شمال شرق. توقفنا هنا للفطور في بقعة كثيفة من الشجيرات في منخفض. في مجراها الأدنى تلتقي رويان بشعيطة عطشان في طريقها إلى آبار الوبرة. ويتكون قاع عطشان من ألواح الحجر الجيري، وضفتها اليمنى كانت جرفاً طوله عشرة أقدام. وقد سرنا في مجراها حتى

(١) دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب كان لها آثار حميدة على مجتمع الجزيرة العربية، حيث حاربت كثيراً من البدع والشركيات، ووجهت الناس إلى العودة والاحتكام إلى ما في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ. للمزيد انظر: محمد الخميس. عناية الملك عبدالعزيز بالقصيدة اللفية، ص ٢٥ وما بعدها. آل أبو طامي، الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عقيدته السلفية...، ص ١٧ وما بعدها، السكاكر، الإمام محمد بن عبدالوهاب، ص ٢٢ وما بعدها. (ابن جريس).

منبعها تقريباً، حيث وجدنا أنفسنا في سهل حصوي واسع به تموجات جميلة، على بُعد خمسة أميال عن يسارنا يوجد جبل كرع الذي ينتهي في هضبة مدورة معزولة تسمى فيصل. وفي الاتجاه نفسه جبل وريع وعلى يميننا الساحل المنخفض لطويّل النضيم. واكتشفت غزالاً وحيداً على مسافة ودهشت عندما علمت كيف استطاعت قلة من رفاقي أن تمسك به. كان جبل وريع يقترب منا، وفي الوقت الملائم صعدنا منحدره الرقيق لنجد أنه عبارة عن بقعة واسعة من الحصى والحجارة ذات الألوان المتعددة، الأسود والأبيض والأخضر والأحمر القاني وألوان أخرى. وفيه يوجد وادٍ ضحل واسع، اسمه صبان يمتد شرقاً وغرباً. وقد دخلناه قرب روضة تسمى سديرة، ومشينا على روضتين توأمتين اسمهما خبيرة ورمادي. وبعدهما وجدنا أنفسنا على دبدبة قرب حوض رجلة الضبع الذي تغطي مساحته الواسعة الرمل والحصى مع كثير من النباتات، التي رأينا فيها قطيعاً من عشرين غزالاً تقريباً. حاول دليلنا الصلبي اطلاق النار عليهم دون نجاح، ولكنه قتل ثعباناً نحيفاً غير مؤذ طوله ثماني عشرة بوصة والذي سماه زروقاً. وعند الغروب خيمنا في منخفض عند جبل الحمر وتعشينا بلحم الغزال المجفف والأرز، ومع احتمال وجود أعداء فكان من الضروري تغطية مصباحي بأوراق من جريدة تايمز[1].

في القرعاء وجدت فراشي في العراء مشبعاً بالندى، والهواء أثناء الساعات الباكرة من النهار، كان رطباً وحاراً إلى أن جففت الشمس وجه الصحراء. وهذه أول مرة أشعر فيها برطوبة في الجو منذ الربيع. في هذا المخيم أيضاً بعد المطر كان الجو ندياً، وانطلقنا على غير العادة مبكرين، فيما ثبت أنه سيرٌ لنحو ثلاثة وثلاثين ميلاً. لا تزال الدنيا مظلمة، وارتفع الفجر الكاذب مثل قمع عظيم في الشرق،

(١) يبدو أن بعض وسائل الإعلام العربية والغربية بدأت تصل إلى بلاد نجد والقصيم منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، مع أن اتصال أهالي بلاد الحجاز مع خارج الجزيرة العربية قد سبقوا غيرهم من سكان الجزيرة العربية. (ابن جريس).

يتلاشى تدريجياً في الضوء الأصفر الضبابي للفجر الصادق. وكانت الدبدبة شاسعة بتموج شديد طويل الرقة كما لو في بحر هادئ. وسطحها من الحصباء الرملية يغطي طبقة الصخر الجيري. وقد شاهدنا بعض الغزلان مرة أخرى عند الفجر. ويقع جبل الضبع على مسافة بعيدة عن يسارنا، ومنطقة قرعة، مثل جبل آخر، أمامنا في البعيد. وقد سرنا ببطء وتثاقل متعبين، وقطعت الوقت في عد خطوات الإبل المتعددة. فكانت ناقتي، العمانية التي ركبتها بصورة منتظمة منذ مغادرة الرياض[1]، تمشي تسعاً وثمانين خطوات في الدقيقة، وناقة رشيد، وهي حيوان ذات أطراف كبيرة بلون أبيض شاحب مأخوذ من الغنائم الحديثة من شمر، أخذت ثماني وثمانين خطوة. ومع ذلك كانت ناقته تسبق ناقتي بعيداً بخطواتها الأطول.

لقد أتينا على بقعة بها خطوط طبيعية واضحة تماماً، وتبدو تقريباً اصطناعية في مظهرها، تفصل بوضوح منطقة الدبدبة المكسوة بالرمث عن منطقة قرعة، وهي سهل متجهم كالح خال من الشجيرات، وفيه بقعة من التربة الرملية الخفيفة فوق أساس طيني مع تموجات رقيقة جداً ورقع أخرى متفرقة من الحصى. ولم نر أي شجيرة في قفرها الهائل، ولكنها كانت مصفرة بحشائش الخريف[2] التي أثلجت صدور إبلنا وراكبيها، ما عدا أنا لأنه كان حثاً مملاً بالعصا لبهائم جائعة، وهي بكل عناد تلوي أعناقها الطويلة إلى تحت نحو الحشائش أو القش اللذيذ. تعج هذه المنطقة بالغزلان، التي ظلت منها قطعان كبيرة في مدى الرؤية طوال اليوم، على الرغم من أن صيادينا تقدموا نحوها مرة بعد مرة دون جدوى.

إن ضرورة البقاء معاً خوفاً من الأعداء صارت مضجرة لرشيد وخزيم الأسلمي اللذين كانا دائماً يتخلفان وراءنا ليتمتعا بالتدخين في هدوء. في إحدى المرات

(١) الإبل العمانية: هي من أنواع الإبل الجيدة وكانت غالباً ما تُصدَّر إلى الحجاز ونجد واليمن وبلاد الشام وغيرها. (ابن جريس).

(٢) النصي ورمم وحثره وحليبه وغيرها. (فيلبي) للمزيد من المعلومات عن النباتات في الجزيرة العربية انظر: الدينوري، كتاب النبات، (عدة أجزاء). (ابن جريس).

أرسلت لهما رسالة مع واحد لم يكن يخفى عليه سبب هذه التأخرات، مفادها أن أي شخص يريد أن يتوقف لأي سبب من الأسباب يجب عليه أن يهرول أمامنا بحيث نستطيع اللحاق بهم. وقد لحق بنا رشيد في لحظة كلمح البصر وهو يتذمر من الاستخفاف والازدراء الواضح في رسالتي، ومشى عابس الوجه حتى لم يعد بإمكانه أن يتحمل الامتناع عن الأكل والشرب. فتوقف، ونزل، وبكل تباه نظر إلى أحزمة سرجه وبدأ يشرب الماء. وقد واصلت سيري، ولكن قبل أن نبتعد عن مدى السمع جعلت عائضاً ينادي بصوت جهوري نداءً رسمياً فحواه أن أي شخص يرغب في شرب الماء أو التدخين عليه أن يسبقنا قبل التوقف لهذا الغرض. وأردفت أن أي شخص بحاجة إلى التبغ ما عليه إلا أن يطلب مني. وقد قوبل الإعلان بقهقهات من الضحك، وظل رشيد أمامنا تماماً فيما تبقى من اليوم مما أثر تأثيرات مفيدة على معدلنا في السير. وقبل أن نصل منطقة القرعاء مباشرة حذرني من أنه لا ينبغي لنا أن نبحث عن شجيرات للحطب أمامنا، ولكن، لأنني شعرت باحتمال نشوب مطالبة صاخبة بالتوقف مبكراً إذا كان الحطب معنا وكنت أتمنى أن عدم وجوده قد يؤدي إلى بذل جهد عظيم للوصول إلى منخفض الشق، فقد اعترضت على اقتراحه قائلاً: إننا يجب أن نحمل معنا الحطب. وكانت النتيجة أننا قضينا تلك الليلة دون وقود إلا من روث الإبل والحشائش[1].

أثناء هذا السير تأكدت لنا مزايا البقاء معاً بشكل ملائم بسبب إنذار مفاجئ. فعلى مسافة بعيدة عن يسارنا نحو ميل رصدنا جماعة ماشية. وبعد الفحص الدقيق من خلال النظارات تعرفنا على أنها حدرة أو قافلة، ولم نكد نصل إلى هذه النتيجة إلا وانطلق رشيد وثلاثة أو أربعة من الآخرين ليحصلوا على الأخبار منهم. ولم

(١) في القديم كان روث الإبل (الجلة) يستخدم في الوقود للتدفئة من أجل طهي بعض الأطعمة وبخاصة في حالة عدم وجود الحطب والأخشاب الصالحة للوقود. (ابن جريس).

يستشيروني في ذلك، ولكي أبيّن استيائي من هذا التعطيل لسيرنا أوقفت بقية الجماعة، وأشعلت غليوني، وبدأت أتفحص الجماعة الأخرى من خلال منظاري. لقد كانوا جماعة من عشرين شخصاً تقريباً، معهم ما يزيد قليلاً عن هذا العدد من الإبل. ومن بينهم منصور بن شريدة من بريدة عائداً نحو بلده من الكويت وبرقش ابن جبرين راجعاً إلى قومه في قرعة.

هذه المقابلة أدت إلى حادث مشؤوم، فعندما وضعت منظاري جانباً أخذه عائض ليفحص الغرباء، عندئذٍ وبخه دابي ربما انطلاقاً من فضوله المحض ودون أية نية في إهانتي. وردّ عليه عائض بحدة وعنف كما يفعل العبيد دائماً، وأصبح النزاع مشتداً نسبياً عندما استأنفنا السير بعد عودة رشيد والآخرين. وتطور الأمر بسرعة فقال عائض، وهو يميل إلى إغاظة الآخرين مستفيداً من حجة أن دابي عنفه على استخدام ممتلكات كافر أنه لا يأبه بالمرة بواحد مثل دابي. وصاح بأعلى صوته: "أنا هنا بموجب أوامر من ابن سعود في خدمة الأنجريزي[1]، وأنا فخور بهذه الخدمة". وفجأة حيث لم أكن متأكداً من أيهما بدأ أولاً، فك الاثنان بندقيتهما من شدادة الرحل وبدءا يدوران حول بعضهما البعض في مناورة لاتخاذ موقع. وكنت حتى الآن مجرد مشاهد مستمتع بالنزاع، ولكني ظننت أنه قد حان الوقت للتدخل. فركبت إلى دابي واستنزلت عليه لعنة الله؛ لأنه محرّك الشر والأذى، وصحت على رشيد أن ينزع البنادق من كليهما. فتردد وبدت الأمور مروعة فظيعة. وعلى الفور أنخت ذلولي، وبعدما وبخت رشيداً بأعنف العبارات المختارة بعناية، أعلنت عزمي على البقاء هنا إلى أن يطاع أمري. عندئذٍ نزع السلاح من كليهما فوراً، وبعد تحذيرهما من تجدد الشرثرة بينهما ركبت مرة أخرى، ولم يتكلم أحد بشيء بعد ذلك.

(١) الانجريزي: أي الانجليزي نسبة إلى فيلبي الذي من بريطانيا، بلاد الانجليز. (ابن جريس).

أصبحت منطقة السهل المكتسي بالرمث الآن متداخلة في القرعاء تحت اسم حميضة التي يُظّن أن فيها فخذ برية من مطير يرعون مواشيهم من مركزهم في وفرة ومعهم أقارب عائض ومروج، اللذين سمحت لهما أن يذهبا للبحث عنهم. وقد انضما إلينا مرة أخرى في اليوم التالي لحظة وصولنا صبيحية بعدما خاب أملهما في العثور على أصدقائهما، على الرغم من أنهما وجدا إبل الفخذ ترعى. خلال أربع وعشرين ساعة من غيابهما كانا يقتاتان تماماً على لبن النوق. وقد نصبنا خيامنا تلك الليلة في منخفض ضحل واسع بالقفر، وكنا ضايقنا قطيعاً كبيراً من الغزلان التي فرت هاربة نحو الغرب عند اقترابنا.

امتدت منطقة قرعاء أمامنا ظاهرة بلا نهاية؛ ولأنه انتشرت شائعات عن تجول الرجال والإبل حولنا، فقد استغنيت عن مصباحي وهيأنا أنفسنا للنوم مبكراً، عازمين على بلوغ صبيحية غداً إذا أمكن. ومشينا طول النهار كله في سهل خال من المعالم الأرضية، ولم يكن بوسعي سوى أن أتعجب من المهارة التي سلك بها دليلنا الصلبي، الذي لقبه رجالنا بأبي الخلاء أي "رجل الصحراء"، مساراً مستقيماً تماماً بلا أي شيء يوجهه إلا الموهبة الطبيعية. لقد كان من فخذ ماجد، وقال لي: إنه مع قدوم الحضارة بدأ الصلبة يميلون إلى تفضيل ارتداء الملابس العادية على جلود الغزلان التي كانت ردائهم الوحيد في الماضي.

لقد أصدرت أوامري بالتحرك مبكراً، ولكن دهشت من إيقاظي عند منتصف الليل. وقد اعتبرت أن ذلك شيئاً فلسفياً بدرجة كافية؛ لأن أمامنا صحراء منبسطة بلا تضاريس أرضية لنعبرها، وعلى مدى أربع ساعات سرنا بالنجم القطبي في الظلام. وفي نهاية ذلك الوقت كنا ما نزال في الصحراء نفسها التي أرهقتنا في اليوم السابق. ولم يظهر المنحدر البعيد لجبل الشق إلا عند الخامسة صباحاً أمامنا على اليمين وهو يلتف في دائرة حولنا معترضاً طريقنا. وعند الثامنة صباحاً، بعدما

أصبحت تلال فوارس الشق المتقطعة على يميننا، وصلنا منخفض الشق وعبرنا خطه الضيق إلى الأرض المرتفعة من بعده. عند ذلك انتهينا من القرعاء وقطعنا صيامنا بالفطور احتفالاً بهذا الإنجاز، فقد مشينا لما يقرب من ثماني ساعات بلا انقطاع ما عدا وقفة قصيرة لصلاة الفجر.

من هنا سلكنا سهلاً متموجاً مكسواً بالعرفج، وتتناثر فيه المنخفضات. هذا سهل الشقيق الذي عبرناه بعد ساعة من السير، ويمتد جهة الشمال الغربي بين جبال من الحجر الجيري وليس له مخرج على ما يبدو. بعد ساعة تجاوزنا على يميننا منخفض رديفات الشقيق الضحل، وبعد ساعة أخرى من التموجات الرتيبة أدت بنا إلى رؤية هدفنا وهي القمم المنخفضة لجبل برقان الذي يقع على بُعد نصف ميل تقريباً وراء آبار الصبيحية. وقد بدا قريباً بما يبعث السرور في النفس؛ لأننا كنا متعبين، ولكن لم يزل أمامنا ثلاث ساعات من السير المرهق. نحو الشمال الشرقي، عندما سرنا متوجهين إلى قمة برقان الرملية الرئيسة ظهرت قمة ورة المخروطية السوداء الوحيدة. وفي أثناء مرورنا بمنخفض يسمى ثميلة تركي وجدنا سطح الأرض محززاً بقنوات رملية ومنحدراً بتدرج نحو حوض صبيحية. تصب مياه منخفض ثميلة تركي في منخفض آخر يسمى مجوع الذي بعد أن تجاوزناه أتينا في مدى الرؤية إلى آبار تقع أسفل منا في الأمام، فلا زال الطريق طويلاً بعيداً فوق السهل المنحدر المخادع. وحول الآبار وبمقربة منها من جهة الشمال شاهدنا قطعاناً هائلة من الإبل. والمكان ينبض بالحياة مما دفعنا نتقدم نحوه بأسرع ما تستطيع إبلنا المجهدة أن تحملنا.

وفجأة أدركنا أن نوعاً من الرعب قد دب بين العير الأقرب إلينا، وهي تلك القريبة أيضاً من الآبار. لقد فعلنا الإشارات المعتادة التي تدل على نوايانا السلمية واستأنفت العير سيرها كما لو قد رضيت. بيد أن طلقة قد صوبت علينا من مسافة

بعيدة، أصابت الأرض خلف مترك، الذي كان أمامي مباشرة، مما يعني أننا من الواضح لا نزال موضع شك واتهام. وقد واصلنا تقدمنا، ونحن نرفع إشارات الصداقة، بينما انطلق راشد الرشيدي أمامنا بمفرده، ولكن شاغلي الآبار ما يزالون يرفضون الاقتناع ودوت طلقات متقطعة فوق رؤوسنا. ونحن ما نزال نواصل التقدم، على أن الأمور أصبحت تزداد خطراً، والطلقات لسوء الحظ تزداد تكراراً وقرباً. وأصبح راشد الآن أمامنا بمسافة بعيدة، أما رشيد ومترك وواحد أو اثنان آخران فكانوا على مقربة منه. وعلى مسافة ما من ورائهم وببطء شديد تابعت السير مع الجزء الرئيس من القافلة. وظلت إبل العفش على مسافة ميل في المؤخرة. من الواضح أن شيئاً خطأ قد حدث حيث أصبح إطلاق النار وابلاً منتظماً. ولم تكن عندي أدنى رغبة في أن أصبح الضحية لحادث في آخر يوم لي بالجزيرة العربية، وانزلقت نازلاً من رحلي. وحذت باقي المجموعة حذوي، وأنخنا إبلنا انتظاراً لما يحدث من أحداث. كان خزيم وشخص آخر أمامي وأنا أقف خلفهما تماماً أراقب تقدم جماعة المقدمة، عندما انطلقت فرقعة بشعة في الهواء، كما لو كانت من رصاص متهشم، نبهتنا لتوخي مزيد من التعقل والحذر.

وجلسنا كلنا عاجزين على الأرض خلف حاجز من إبلنا. بحلول هذا الوقت وصل راشد الآبار وبدأ التفاوض، بيد أن إطلاق النار، على الرغم من أنه أصبح متقطعاً، إلا أنه لم يزل مستمراً لفترة. ولم يتوقف تماماً إلا بعد أن وصل رشيد وتلقينا إشارة أن كل شيء قد أصبح على أفضل حال. وبعد قليل وصلنا إلى الآبار لننصب خيامنا ونعلم سبب هذا الهجوم الغريب. كانت العير تخص قافلة من قوم الكويت الذين هاجت أعصابهم بقدر عظيم من الغضب بسبب احتمال السير الطويل في الصحراء الذي ينتظرهم. نتيجة سياستنا نحن المتذبذبة في السماح لشيخ الكويت وأصدقائه من العجمان وشمر بمضايقة ابن سعود بلا قيد فقد أصبحت

المنطقة كلها تعيش في حالة من الخوف والقلق وعدم الاستقرار[١]. إن الشك الذي أثاره ظهورنا المفاجئ قد خلق ذعراً، ولم يكن هناك من أحد في القافلة يستطيع أن يحتفظ بأعصاب الجماعة تحت السيطرة. وإن صح تقديرهم لنا لكانوا قد خسروا في موقف يضعهم تحت رحمتنا. لقد كانوا حمقى ولم يمنع وقوع حادث لن يكون له تعويض مؤسف إلا إطلاقهم النار بتهور. ومن الغريب كما قد يبدو أن هذه أول مرة أتعرض فيها لنيران حقيقية خلال السنة كلها من إقامتي المؤقتة في جزيرة العرب[٢].

٥ـ الكويت[٣]

لأنها لا تنعم بالبرق أو بالوسائل الأخرى من الاتصالات السريعة فقد ظلت الجزيرة العربية دائماً أرض الشائعات، التي تتطاير عبر مسافات صحرائها مثل التبن أمام الريح مع حبة بين الفينة والأخرى من الحقيقة الضالة في وسطها، تقع غير مرئية، لا يهتم بها أحد. فالمحتمل يقبله المرء كما لو كان ممكناً، والمستحيل أو غير المحتمل بصورة كبرى يرميه المرء جانباً في دهاليز النسيان للحكايات التافهة، وربما يتساءل عن الأسباب والبواعث الكامنة وراء ترويجها. وفي تلك الليلة الخامس عشر من أكتوبر (١٩١٨م)، عند آبار الصبيحية على حدود صحراء جزيرة العرب دونت ببساطة في مذكرتي اليومية قائلاً: "أحدث إشاعة كويتية كانت عن الاستيلاء على

(١) لمزيد من التفصيلات عن موقف بريطانيا من الكويت وابن رشيد وابن سعود خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، (العشرين الماضي). انظر: لوريمر، ص ٥٢٩-٥٣٧، ايف بيسون، ص ٦٩-٨٣، الرشيد، تاريخ الكويت، ص ١٧٤، ٢٥٣، خزعل، ج٤، ٢٤١-٢٤٤، الخترش، ص ١٠٩-١١٠. (ابن جريس).

(٢) من يستقرئ رحلات فيلبي المتعددة في جزيرة العرب يجده تعرض أكثر من مرة للعديد من المخاطر البشرية والطبيعية مثل: اعتداء بعض أفراد القبائل، التي كان يمر من أرضها، عليه، أو تعرضه لأمراض الحمى والبرد وغيرها. (ابن جريس).

(٣) للمزيد عن تاريخ الكويت السياسي والحضاري في النصف الأول من القرن الهجري الماضي. انظر: عبدالعزيز الرشيد، تاريخ الكويت، ص ٢٣ وما بعدها، الخترش، ص ٣٦ وما بعدها، ديكسون الكويت وجاراتها، ص ٤٦ ومابعدها، خزعل، تاريخ الكويت السياسي، (الجزءان الثالث والرابع). (ابن جريس).

دمشق"، تلك الإشاعة سوف تطير بهدوء متضخمة في الجزيرة العربية، وفي الصباح التالي كان موظف بريطاني من إدارة النقل البحري الداخلي في الشويخ، ذو وجه بني، وركب بنية ومكسو بقميص يشبه قميص العمال، وسروال قصير من الكاكي، قد جاء إلى مدخل مكتبه ومسكنه متعجباً من إناخة الإبل أمام بيته. وتعجب أكثر عندما خاطبه غريب ملتح في ثياب متهدلة بلغته نفسها مستفسراً عن مكان الوكيل السياسي البريطاني. عندئذ جاء دوره في إثارة دهشة الغريب. فلم تكن الإشاعة إلا نصف الحقيقة برغم كل شيء. فدمشق وبيروت كانتا في أيدينا. وقد قام اللنبي ولورانس بإعاقة تقدم الجيوش التركية في سوريا بالاستيلاء على أعداد هائلة من الرجال والبنادق. وكانت بلغاريا بعد سلسلة من الهزائم الساحقة قد خرجت من الحرب باستسلام غير مشروط. وتركيا والنمسا كانتا تطالبان بأعلى صوتيهما بالسلام الفوري على مضض لكي يتخذا إجراءات منفصلة لضمها إليهما. وحتى ألمانيا فقد قدمت عرضاً مغرياً بالسلام والذي كان بمثابة اعتراف واضح بالهزيمة.

وهكذا فمن كافة النواحي العملية فإن الحرب قد انتهت، وفي غضون شهر شهدت احتفالات الهدنة في بغداد. ولكن بالنسبة لي سيظل هذا اليوم وليلة السادس عشر من أكتوبر دائماً باقيين في ذاكرتي، عندما، كنت عائداً لتوي بعد سبعة أشهر من التجوال في الصحاري والقفار، قوبلت بأخبار غير متوقعة ومثيرة جداً، ومفرحة مثل أي أخبار يقابلها على الإطلاق مسافر متعب في تاريخ العالم. فالأمس كان مثل أيام السنوات المضنية في الماضي المحملة بأعباء الدم والرعب في ضمير البشرية، وفي عالمي الخاص كنت مجهداً ومكتئباً. واليوم يمثل عهداً جديداً من السلام والرخاء، ورنّت الأخبار العظيمة في أذني مثل أجراس الفرح في بهجة العالم الكبرى. وطارت أفكاري في أمواج من الامتنان للرجال الذين قاتلوا أو كافحوا خلال رعب تلك السنين ولا سيما لأولئك الذين لن يتمتعوا بالشعور بالنصر وثماره.

يقع منخفض الصبيحية داخل حدود إمارة الكويت، شبه المستقلة، المحمية البريطانية، التي تمتد حدودها الطبيعية الداخلية تقريباً على طول قناة الشق، وفي المنخفض عدد كبير من الآبار، أكثر من خمسين كما قالوا لي، فيها ماء غزير قليل الملوحة عند عمق لا يزيد عن اثنتين أو ثلاث قامات. والفوهات منحوتة بصورة بدائية في الصخر الجيري بسلسلة من الدوائر المتناقصة دائماً في قطرها. ولا يوجد تبطين بالحجر في هذه الآبار. والماء، العذب في عدد قليل منها كان يسحب باليد. والجو يماثل ذلك الجو السائد في ساحل الخليج العربي، رطباً ونديأً، وكنت سعيداً بالماء الغزير لأتنظف من أدران السفر لأول مرة منذ رحيلنا من بريدة. ولم يكن تغيير الملابس غير مكروه، وقد رقدت لأرتاح أملاً أن يتركوني في هدوء حتى الفجر. على أن رشيداً وأصدقاءه كانوا متشوقين كثيراً إلى مواخير الكويت، ولم أقاوم نداءاتهم بالانطلاق قبل الثانية صباحاً.

وعلى مدى ساعتين من هناك مشينا في الظلام وانتشر أمر بالمحافظة على الصمت التام خشية أن يكون هناك أعداء أو غزاة كامنين حول الطرق المؤدية إلى الآبار. ولسبب ما لم يستطيعوا أن يحافظوا على الصمت، وفي إحدى المرات طلبت التوقف احتجاجاً على ثرثرتهم التافهة. وقلت إذا كان ولابد أن يتحدثوا، فليتحدثوا في أمان ويتوقفوا، خشية أن نقع في كمين. ثم انطلقنا في المشي مرة أخرى، في صمت هذه المرة، فوق سهل رملي وعر، يبرز عن يميننا في الصحراء القاحلة المتموجة برفقه، ويحده على يميننا أولاً جبل برقان ثم الخط المنخفض لتلال رملية ساحلية تسمى العدايم. على مسافة غير بعيدة نسبياً شمالاً من شرق يقع جبل ورا المخروطي، وعلى بُعد حوالي ستة أميال نحو الغرب يقع جبل مناقش المنخفض.

بعد ساعتين ونصف من السير فوق سهل يسمى السودة فيه نتوءات متكررة من الصخور الجيرية، مررنا بعد مسافة ميل على يسارنا، بآبار مشاش الطويل وهما

اثنتان، كما قالوا لي، فيهما ماء مالح قليلاً عند عمق أربع قامات. وحولهما يرقد قطيع كبير من الأغنام السوداء، ولكن في الضوء الخافت لما قبل الفجر مررنا غير مرئيين. كنا بعيدين عن الدرب الرئيس، الذي يقع على مسافة ميل تقريباً عن يسارنا وذلك لنتفادى صدفة المواجهات، ومشينا قريباً نسبياً من آبار ملح في منخفض السبخة عند حافة التلال. في هذه المنطقة عبرنا آثار سير حديثة نسبياً لتسعة من الغزاة متجهين نحو الشمال الغربي على ما يبدو من أحد المراوي الكثيرة التي توجد على مسافات فاصلة بطول حافة المنطقة الرملية، في شريط السبخة الذي يقترب تدريجياً من مسارنا حتى عبرناه في الوقت الملائم، ويبلغ عرضه نحو ميل، ويبدو أنه ينتهي تماماً بعد ذلك بميلين تقريباً عن يسارنا، بدروب الطريق الرئيس. وهناك درب آخر عن يميننا يقطعه متجهاً عن طريق ملح إلى الصبيحية، بينما يذهب الدرب الرئيس، الذي سلكناه الآن، عن طريق مشاش الطويل. والحزام المالح يسمى بارود أو بوارد.

ينتشر في التلال الرملية التي عبرناها بتموج خفيف العرفج وحشيش خشن مثل القصب يسمى ثاندوه الذي ينمو في آجام مجتمعة معاً، واندمجت بعد مسافة في سهل واسع من الرمل الأبيض على تربة صلبة، ممتداً إلى أقصى ما استطعنا أن نرى في كل اتجاه. وبين الحين والآخر، عندما نرقى مرتفعاً، كنا نلمح منطقة الجهراء المحيطة بنا مثل الجرف وهي تومض في ضوء الصبح على مسافة بعيدة نحو الشمال الغربي. وخلال توقفنا القصير للفطور أرسلنا رجلاً بعيداً عنا ليحرسنا من الأعداء، وعندما ركبنا مرة أخرى صاح بأنه قد رأى لتوه خمسة رجال راكبين على نوق ذلول متجهين على ما يبدو نحونا على الرغم من أن تحركاتهم كانت مخفية بسبب ارتفاع طفيف في الأرض. وقد ظل يراقبهم، وبعد دقائق قليلة أبلغنا أنهم قد انصرفوا مبتعدين، وعلى كل حال فإن عددهم صغيراً جداً بما لا يسبب لنا أي قلق، بالرغم من أنهم في الغالب كانوا عصابة تبحث عن الأذى. والآن حافظنا على ارتياد

الدرب الواضح تماماً ولاحظت أثر جر الحطب وراء ذيول حمير الكويت لبيعها في سوق الوقود بالميناء[١].

عند التاسعة والنصف صباحاً بلغ المسير ذروته ونظرت فجأة إلى سلسلة طويلة من الواحات الزرقاء الخضراء في فضاء الصحراء. إنه البحر، وابتهجت بهجة عظيمة، مع مسحة من الحزن والأسى عندما فكرت أن أسفاري في جزيرة العرب قد وصلت نهايتها. وبعد نصف ساعة كانت القمم العالية لمباني الكويت تُرى بصورة ضعيفة باهتة، ومن الجبل التالي انحدر السهل نازلاً بتموجات رقيقة إلى المدينة التي ما زالت بعيدة ولكنها ظاهرة بوضوح كامل الآن بطولها وعرضها، على الرغم من أنها محجوبة بغمامة من الغبار والسراب. وهناك قابلتنا الإبل التي لا تحصى من بُريح صاعدة المنحدر في جماعات ضخمة، وهي محملة بالأرز والتمر لأهل القبائل في الوفره بالصحراء العالية خلفنا. ومن كل جماعة تمر علينا كنا نواجه بسؤال عن أخبار الصحراء. فسألونا: "هل جئتم بخيامنا في الوفرة؟ وهل صحيح كما يقولون في الكويت، أن ابن سعود قد فرّ في خطر شديد من أمام حائل ولم يصل بريدة إلا بأتباع قليلين؟"[٢].

في تلك الأيام كانت الأخبار المزيفة تلفق عن عمد بكل من الكويت ومكة لإضعاف الثقة في ابن سعود وتشويه سمعته. وكان بعض من إبل برية هذه قد أسرت في حملة على شمر المعادية ولكنها صودرت لاحقاً من قبل الشيخ سالم ليضايق ابن

(١) للمزيد عن تاريخ الكويت السياسي والحضاري خلال النصف الأول من القرن الهجري الماضي انظر: خزعل، تاريخ الكويت السياسي (عدة أجزاء)، عبدالعزيز الرشيد، تاريخ الكويت، ص ٣٣ وما بعدها، أحمد أبو حاكمة، تاريخ الكويت (الكويت، ١٩٦٧م) ج١، ص ٣٤ وما بعدها، راشد عبدالله الفرحان. مختصر تاريخ الكويت (القاهرة، ١٩٦٠م) ص ٦٢ وما بعدها، محمد بهجت سنان. الكويت زهرة الخليج العربي (بيروت، ١٩٥٦م) ص ٣٨ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على نتائج الصراعات بين ابن سعود وابن الرشيد في النصف الأول من القرن الهجري الماضي، انظر: إيف بيسون، ص ٢٠٣-٢٠٨، العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٦٣ وما بعدها. (ابن جريس).

سعود، الذي كانت مطير من رعاياه بالطبع، ولم تعد إلى آسريها بصفتها غنائم شرعية إلا بموجب أوامر مباشرة من السلطات البريطانية على أساس التقارير التي قدمتها أنا. ولم يدرك هؤلاء القوم إلا قليلاً، فمن واجبهم أن يشكروني على استرداد غنيمتهم القيّمة. وكان أحد الشيوخ الذين تحدثنا معهم يُدعى طلّة أبو شويربات زعيم فخذ البرزان، وآخر يقال له سطام أبا الخيل من فخذ الجبلان من جماعة علوة[1].

وقد ابتعدنا الآن عن الدرب الرئيس متجهين إلى مجموعة من المباني الجديدة المشيدة بالحجر تسمى الشويخ، والتي أقيمت لتكون بمثابة مكاتب ومقار سكن لمجموعة من الموظفين البريطانيين العاملين في الكويت. هناك قيل لنا إن الوكيل السياسي السيد / ماكلوم (Mr. MacCollum)، موجود في الوكالة داخل المدينة. وفي الوقت الملائم شققنا طريقنا على طول الواجهة البحرية حتى الأبواب الرحبة لذلك المبنى. هناك استقبلت بود وترحاب، وبعدما أرسلت رفاقي الصحراويين إلى وكيل ابن سعود، عبد الله النفيسي، سلمت نفسي للتمتع بملذات الحضارة الحديثة. وكان كرم ضيافة ماكلوم سخياً وفخماً، وشربت الخمر (الشمبانيا) في تلك الليلة بعد شهور من الجفاف، إلا من ماء الصحراء. وهناك كانت الرسائل من الوطن والصحف جاهزة لقراءتها والكثير مما يمكن التحدث فيه.

في الصباح التالي عند ساعة مبكرة كان الشيخ سالم، حاكم الكويت وابن مبارك الشهير، يتوقع الزيارة التي كنت أنوي أن أقوم بها له بصورة شخصية. ذلك هو أول اجتماع لي مع واحد كانت أعماله وتصرفاته مصدراً دائماً للمتاعب والمشاكل بالنسبة لي طوال أيام مهمتي كلها. ولقد ترك عندي أثراً طيباً على الرغم من كل ما أعرفه عنه من أنه قد اختير ليؤدي بصورة حتمية لا تتغير دور المزعج لسلام الجزيرة العربية. إن المجاملة الساحرة بزيارته لواحد كان يجب عليه أن يزوره أولاً

(١) البرزان والجبلان أفخاذ عشائرية تعود أنسابها إلى قبيلة مطير، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٤٠-١٤١. (ابن جريس).

لهي منسجمة مع رقته العامة ودماثة خلقه وروعة حديثه. فقد كان بالميلاد والنشأة ضمن السلسلة المباشرة لأفضل فرسان الجزيرة العربية، على أن داء الحسد، والحقد، والبغض والمكر قد دفن في روحه عميقاً. إنه وريث تقاليد عظيمة التي على أيدي مبارك قد أرضعت عبقرية ابن سعود نفسه ووجهت خطواته، إلا أن ابن مبارك قدر له أن يؤدي وظيفة خسيسة، وقد ربط نفسه بصورة مناسبة وبتباه لافت للأنظار بالقضية الخاسرة للأسرة الهاشمية[١]. ومن قدر الكويت أن تعاني من جراء ذلك، ولكن المستقبل لا يزال تحت أقدام الآلهة[٢] وكانت سياسة سالم في هذا الوقت، التي تبناها عن عمد عدائية ومزعجة لابن سعود. في هذه المناسبة وأثناء المساء عندما زرته رداً على زيارته ناقشنا بطريقة غير رسمية قدر الإمكان الموضوعات الأكثر جدلاً، ولم يبتعد أبداً ولو للحظة عن مسلك الحوار الهادئ، واللطف والمجاملة بل وحتى الاكتراث برأي الآخرين. وبالنسبة لي فقد بادلت مسلكه بالمثل، وامتنعت عن اللوم أو الاتهام، على أمل أن يقع في يوم ما الاختيار عليّ للتوسط في قضية السلام العربية. ولم يأتيني هذا اليوم أبداً. على الرغم من أنه في الكويت بعد ذلك بست سنوات وبعدما لحق سالم بآبائه من زمن طويل، قد تحطم سلام الجزيرة العربية إلى شظايا، ولم يُسترد إلا بالانتصار النهائي للقضية الوهابية التي مقتها سالم مقتاً شديداً[٣].

قام على خدمة الشيخ في كلتا المقابلتين معاونه السري، المُلا صالح، والاجتماع المسائي حضره أيضاً واحدٌ من كبار التجار. كان الأول رجلاً قصيراً، أنيقاً، وضئيلاً،

(١) لمزيد من الاطلاع على الأوضاع السياسية في كل من الكويت والحجاز ونجد خلال الحرب العالمية الأولى، وبخاصة عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م) انظر: السعدون، ص ٨٨، خزعل، ج٣، ص ٢٧ وما بعدها، خير الدين الزركلي. شبه جزيرة العرب في عهد الملك عبدالعزيز (بيروت، ١٩٧٠م) ص ٢٣٧. (ابن جريس).

(٢) عبارة: (المستقبل لا يزال تحت أقدام الآلهة)، صياغة غير مقبولة في شريعة الإسلام، لأن المستقبل بيد الله عز وجل. ومثل هذه العبارات تقال في المجتمعات الغربية، وتعد من الأمور العادية في ثقافاتهم وأعرافهم. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن موقف سالم الصباح من ابن سعود خلال الحرب العالمية الأولى، انظر: عبدالعزيز الرشيد، ص ٢٣٣ وما بعدها، خزعل، ج٤، ص ١٨٦ وما بعدها، الخترش، ص ٩٣. (ابن جريس).

ماهراً وذكياً، وشارك مشاركة بارزة في النقاش، الذي ذهلت خلاله من بساطة تصرفات سالم والانعدام التام لأي ميل إلى الرسميات. وكان الشيخ في حوالي الخمسين من العمر، ومظهره يبدو أكبر من عمره، فقد أضناه القلق والهم، على أنه متحدث لبق يبتسم بين الفينة والأخرى تقريباً في سره خفية كما لو كان من غير اللائق أن يظهر الضحك دون إشارة استنكار. وفي أول اجتماع لنا كنت ما زلت ملتحياً ومرتدياً ثياب الصحراء، ولكن سالماً بدوي المولد ومسلم غيور، ألمح تقريباً إلى أنه من غير اللائق ارتداء مثل هذا المظهر الخارجي، فربما كان ذلك ضرورة كريهة في جو الجهل والتعصب بمملكة ابن سعود غير المتحضرة، ولكن من الأفضل التخلص منه بأسرع ما يمكن. واستفساري عن حلاق قد قوبل بتعهد متحمس لتقديم واحد منهم بلا تأخير، مقروناً بشرط أن أحلق لحيتي وأرتدي هنداماً حسناً قبل أن أزوره في المساء. إن الحلاق لم يخلصني فقط من لحيتي بل جعلني أشبه بمجرم سجين وذلك بجز شعري من جذوره قبل أن أدرك ماذا فعل. كما أن نبذ الملابس العربية والاستحمام قد أتما تحويل الهيئة التي رضي عنها بلا حدود حاكم الكويت عندما حضرت أمامه. فلم يعد يتعامل مع مبعوث من ابن سعود ولكن مع موظف ورجل بريطاني كريم. وقد ابتسم رفاقي في السفر ابتسامة عريضة ملء أشداقهم من هذا التغير الفظيع[1].

ولم يضيع سالم أبداً أي فرصة في إظهار ولائه الذي لا يهتز للقضية البريطانية، ولا ريب أن التحول الحاسم الأخير للأمور في صالحنا قد جعل تأكيداته حقيقية بدرجة كافية. وعلى الرغم من ذلك، وكما أدرك ماكلوم وسابقوه لأسباب

(١) كانت العلاقات بين سالم الصباح وابن سعود متوترة بسبب مساعدة الأول لقبائل العجمان بالإغارة على بلاد ابن سعود، وقد توسطت بريطانيا في حل المشكلة بين الطرفين، وكلفوا مندوباً من قبلهم، وهو الكولونيل هملتون، الوكيل السياسي البريطاني في الكويت، ليتوسط بين الطرفين عام (١٣٣٦هـ/١٩١٧م)، ولكنه لم ينجح فحل محله في الانتداب والوساطة - جو فيلبي عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م). للمزيد انظر: خزعل ج٤، ص ٢١٠ السعدون، ص ١٩٦-٢٤٤. (ابن جريس).

وجيهة[١]. فقد ظل دائماً وعن عمد خائناً من اللحظة التي جلس فيها على عرش أسلافه. لقد تآمر مع شمر، ومن خلالهم، مع الأتراك، وجنى ثروة عظيمة من هذه العملية. وكان محظوظاً بنجاته من العزل نهائياً من منصبه على أيدي السلطات البريطانية، التي تعاملت دائماً معه بشهامة ونبل ومعاناة طويلة. وبطريقة غامضة تحدث عن بلاده بصفتها تشمل جزءاً كبيراً من منطقة مطير، التي تضم "حفرنا وصفاتنا وقرعتنا وحياتنا" . ولكنه بالقدر نفسه استنكر مناقشة الحدود قائلاً: "إن قدرنا مثل قدر آل سعود". ولقد كان ابن سعود يتحدث أحياناً بالكلمات نفسها عن علاقات نجد مع الكويت في عهد مبارك، على أن هذه العلاقات تعاني من انتكاسة بسبب سالم، ومن الواضح أن قطعاً لها يتعذر اجتنابه وليس ذلك ببعيد. وفي (١٩٢٢م)[٢] كانت حدود إمارة الكويت قد رسمت بدقة تحت رعاية بريطانيا العظمى، التي دفعت بطائراتها مؤخراً لتدافع عن الكويت مع تهديد هجوم الإخوان عليها[٣].

ومن المؤكد أن سالماً قد قبل حسيناً سلطاناً عليه، ويعتبره في الظروف القائمة مستحقاً لتولي خلافة الإسلام. ولكن في كل تلك الأمور كان مسلكه تمليه عليه بوضوح رغبته في معارضة ابن سعود. وهناك شك قليل جداً عندي من أنه لو كان الشريف قريباً منه بدرجة كافية للتدخل بصورة فعالة في شؤونه فإنه سوف يرفض أي عرض بفرض سلطانه عليه. وحتى في التبادل الأخير للبرقيات بين الحاكمين كان هناك برود مؤكد واضح. فقد طلب منه الملك حسين أن يتخذ إجراءات لمنع "رعاياي من عتيبة" من الوصول إلى أسواق الكويت، ورد عليه سالم بأنه ليس هناك ضرورة لأي إجراءات لأن "رعاياك من عتيبة لا يأتون أبداً للكويت". لقد كان الهدف

(١) يقصد بـ (ماكلوم Maccollum) أي الوكيل السياسي البريطاني في الكويت. (ابن جريس).

(٢) (١٩٢٢م) يعادل هذا التاريخ بالهجري عام (١٣٤١هـ). (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات بين ابن سعود وآل الصباح بعد الحرب العالمية الأولى، انظر: ديكسون، ص ٢٥٨ وما بعدها، ابن هذلول، ص ١٢٦، الخترش، ص ١١٢ وما بعدها، عبدالعزيز الرشيد، ص ٢٥٤ وما بعدها، خزعل، ج٤، ٢٥٨، السعدون ص ٢٤٧ وما بعدها. (ابن جريس).

ماكراً وجارحاً، رفض ضمني للاعتراف بمطالبة الأشراف بصورة عامة بالسلطان على قبيلة ظل معظمها تحت سلطة ابن سعود.

وأصبحت الآن قضية الحصار النكدة بما يبعث على السرور عديمة القيمة في خطط المستقبل، وقد أعلن سالم أنه قد اتخذ الآن ترتيبات كافية لمنع مرور الغزاة أو المهاجمين عبر بلده. وقد ذكرت له الجماعة التي رأيناها والدروب الجديدة التي عبرناها، وعاتبته على التجربة التي وقعت لنا في الصبيحية وقد أثارته هذه الواقعة تماماً. فقال: "لو أردت، فلسوف أعاقب هؤلاء القوم فوراً". وقد استنكرت أي إجراء مثل هذا، لأني أدرك أن المعتدين كانوا من رعايا ابن سعود. وأخيراً أخبرني عن رسل جاؤوا من بريدة في ذلك اليوم بأخبار مفادها أن ابن سعود قد أرسل وفداً بمقترحات سلام إلى حائل. وبعد ذلك بنصف ساعة سمعت من عبد الله النفيسي والرسل أنفسهم رواية أخرى، وهي الرواية الحقيقية للقصة نفسها، فقد جاء وفد من ابن رشيد ليعرض السلام على ابن سعود!.

خلال يومي إقامتي المؤقتة في الكويت لم يكن عندي وقت ولا ميل لرؤية كثير من المدينة أو قاطنيها، فلقد كانت مدينة هائلة بالنسبة للجزيرة العربية، بها ما يقرب من خمسون ألف نسمة في هذا الوقت، وهي الميناء البحري الرئيس في وسط الجزيرة العربية، وبها صناعة نشطة لبناء السفن. كل ما كنت أريده أن أبتعد عنها بأسرع فرصة ممكنة، والعودة إلى بغداد، وإذا أمكن، إلى إنجلترا التي لم أرها منذ عشر سنين؛ ولذلك في صباح الثامن عشر من أكتوبر ركبت متن سفينة صغيرة تسمى كاليكا (Kalika) ونفضت تراب الجزيرة العربية عن قدمي، بكثير من الأحزان وبعض الارتياح، متسائلاً ما إذا كان من قدري في يوم ما أن أتغلغل مرة أخرى في البيوت التي تشبه بيوت الأشباح لأهل الصحراء هؤلاء الأجلاف المتعصبين.

وقبل أن أرحل حزت الرضا بإفادة عبد الله النفيسي أن الخطر على تسليم الألف بندقية قد رفع. وسوف تذهب الآن إلى داخل الصحراء إلى ابن سعود، وأرسلت معها خطاباً شرحت فيه تفاصيل الموقف الجديد الذي نشأ ونصحته بالصبر في وجه المصاعب التي تقع أمامه[1].

(١) يظهر من أسلوب فيلبي في كثير من صفحات هذا الكتاب أنه كان معجباً بشخصية ابن سعود، بل كان متعاطفاً معه لما رأى فيه من صفات حميدة لا توجد إلاّ في القلائل من الزعماء والقادة. لمزيد من المعلومات عن شخصية ابن سعود، انظر المراجع التالية: درمولين، الملك ابن سعود والجزيرة العربية الناهضة، ص ٣٣ وما بعدها، الكيلاني، عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود والإصلاح الإسلامي المعاصر، ص ٢٢ وما بعدها، عبدالله التركي، الملك عبدالعزيز أمة في رجل، ص ٣٦ وما بعدها، إبراهيم السماري، الملك عبدالعزيز الشخصية القيادية، ص ٤٥ وما بعدها، محمد الخميس، عناية الملك عبدالعزيز بالعقيدة السلفية، ص ٤٧ وما بعدها. (ابن جريس).